تغريد عارف النّجار



رسوم جلنار حاجو

سِتُّ الكُلّ



قصة : تغريد عارف النجار

رسوم : جلنار حاجو

التدقيق اللغوي والمراجعة : هديل مقدادي

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2013/7/2743

ردمك ISBN 978-9957-04-071-0

طبعت في المطبعة المركزية – عمان، الأردن

الطبعة الثالثة : 2017

للتواصل مع الدار، الرجاء الكتابة ل info@alsalwabooks.com
ص.ب. 925826 عمان 11190 الأردن.



تم تصنيف هذه القصة وفق معايير «عربي ٢١» لتصنيف كتب أدب الأطفال العربي وقد صنفت مستوى س متقدم أوسط «١»



www.alsalwabooks.com



تغريد عارف النّجار

رسوم جلنار حاجو



1



كوبٌ من الشّاي

استيقظتْ يسرى على صراخِ والدها وعلى صوتِ أدواتِ مطبخٍ ترتطمُ بالأرضِ بشدّةٍ، وصوتِ أخيها الصّغيرِ جميلٍ ذي السّنواتِ السّتِّ يشدُّ بثوبِ والدتِها غيرَ مبالٍ بالدّراما الّتي تحصلُ حولَهُ، وهوَ يقولُ: «يمّا ... يمّا.. بدّي آكل.»

قفزتْ يسرى منْ فرشتها، وبسرعةٍ أعادتها لسدّةِ الفرشاتِ خلفَ السّتارةِ الّتي تفصلُ منطقةَ النّومِ عنْ باقي المنزلِ.
ثمَّ أسرعتْ إلى والدها تحاولُ أنْ تهدّئَ منْ عصبيّتهِ وهيَ تقولُ: «ما القصّةُ يابا؟ باللهِ عليكَ أنْ تهدأَ، ماذا سيقولُ الجيرانُ عنّا؟»
استمرَّ الوالدُ بالصّراخِ قائلاً: «طلبتُ منْ والدتكِ المصونةِ كوبَ شايٍ، فأحضرتْ لي ماءً ملوّنًا.» ثمَّ لوّحَ بكوبِ الشّايِ الّذي في يدهِ فتطايرَ الشّايُ حولهُ وهوَ يصيحُ قائلاً: «بربّكِ هلْ تُسمّينَ هذا شايًا؟ يكادُ لا يكونُ فيهِ لونٌ، ولا يوجدُ فيهِ سكّرٌ كافٍ... مرٌّ مثلُ العلقمِ.»
تبادلتِ الأمُّ نظرةً سريعةً معَ يسرى وهيَ تقولُ بكلِّ هدوءٍ: «حقّك عليّ يا أبا صالحٍ .. سأعملُ لكَ كوبًا آخرَ!»
قالتْ يسرى لوالدها وهيَ تجرُّ كرسيَّهُ المتحرّكَ: «ما رأيكَ يابا أنْ تجلسَ في الفناءِ أمامَ البيتِ حتّى نحضّرَ لكَ كوبَ شايٍ على ذوقكَ؟»
تمتمَ أبو صالحٍ ثمَّ تنهّدَ وقالَ: «الله يرضى عليكِ يا يسرى، مافي مثلك، والله بتسوي مائة شاب.»

ضحكتْ يسرى وطبعتْ قبلةً على رأسِ والدها، فهيَ الوحيدةُ الّتي تستطيعُ أنْ تهدّئهُ عندما يثورُ ويفقدُ أعصابهُ مثلَ ما حصلَ هذا الصّباحَ. ثمَّ أسرعتْ إلى والدتها الّتي قالتْ لها همسًا: «لمْ يتبقَّ عندنا شايٌ ولا سكّرٌ.» واغرورقتْ عيناها بالدّموعِ وهيَ تقولُ: «منذُ ذلكَ اليومِ المشؤومِ، عندما وقعَ النّفقُ عليهِ وهوَ يحاولُ أنْ يُحْضِرَ "موتورًا" جديدًا لقاربهِ ونحنُ لمْ نرَ يومًا أبيضَ. كانَ يخرجُ للصّيدِ معَ رفاقهِ ويصطادُ على الأقلِّ ما يكفي العائلةَ، وأحيانًا يبيعُ صيدهُ في المدينةِ، ويرجعُ إلى البيتِ بشوشًا فرِحًا ومحمّلاً بكلِّ ما نحتاجُ إليهِ. أمّا الآنَ فيعزُّ عليهِ أنّهُ أصبحَ عاجزًا ولا يستطيعُ أن يكسبَ عيشهُ، وأنَّ عليهِ أنْ يقبلَ المعونةَ منَ المحسنينَ والجمعيّاتِ الخيريّةِ.»

نظرتْ بسرعةٍ إلى يسرى... مسحتْ دموعَها بطرفِ كمّها... وهيَ تحاولُ جاهدةً أنْ تتمالكَ نفسها قائلةً: «لا تغضبي منهُ يا يسرى، فوالدكِ رجلٌ طيّبٌ ولكنْ تعزُّ عليهِ نفسهُ، ولا يقبلُ على نفسهِ أنْ يعيشَ عالةً على غَيْرِهِ.»

كانَ المطبخُ في زاويةٍ منْ غرفةِ الجلوسِ، يفصلهُ عنها ستارةٌ

باليةٌ، في يومٍ منَ الأيّامِ كانتْ حمراءَ ومزركشةً وأصبحتِ الآنَ دونَ لونٍ منْ كثرةِ الأبخرةِ المنبعثةِ منَ الطّبخِ. شعرتْ يسرى بأنّها تختنقُ في هذا المكانِ الضّيّقِ.

مرّرتْ أصابعَ يدها في شعرها البنيِّ الطّويلِ وربطتهُ بمطّاطةٍ كانتْ حولَ رسغها وقالتْ بعصبيّةٍ لأمّها: «يا لهُ منْ صباحٍ! سأغسلُ وجهي ثمَّ سأطلبُ منَ الجيرانِ بعضَ الشّايِ والسّكّرِ للمرّةِ المليون.»

كانَ البيتُ على أطرافِ مخيّمِ الشّاطئِ. منْ جهةٍ كانَ يطلُّ على بيوتِ المخيّمِ الإسمنتيّةِ المتشابكةِ وأزقّتهِ الضيّقةِ. ومنَ الجهةِ الثّانيةِ كانَ هناكَ فسحةٌ أوسعُ تطلُّ على جزءٍ من شاطئِ البحرِ يستخدمها الأطفالُ للعبِ كرةِ القدمِ.

أسرعتْ يسرى في الزّقاقِ الضّيّقِ الّذي يفصلُ بيتهمْ عنْ بيتِ جيرانهمْ «عائلةِ أبي حافظٍ». توقّفتْ قليلاً أمامَ البابِ ويدها مرفوعةٌ... أخذتْ نَفَسًا عميقًا ثمَّ دقّتْ على بابهمْ بكلِّ خجلٍ؛ فقدْ كثرتْ طلباتُ عائلتها في الآونةِ الأخيرةِ.

فتحتْ لها أمُّ حافظٍ البابَ وهيَ تقولُ: «شو القصّة يا يسرى؟ ماله أبوك من الصّبح يصرخ ويزعق؟»

قالتْ يسرى: «ما إنتِ عارفة الوضع يا أم حافظ... ما تواخذينا، بدّي أطلب منك شويّة شاي وسكّر، وإن شاء الله تنفرج الأمور علينا ونردّها لكم مع حبّة مسك.»

عضّتْ أمُّ حافظٍ على شفتها السّفلى بامتعاضٍ، ورفعتْ حاجبها لتبديَ استياءها وعدمَ تصديقها لما تقولهُ يسرى، ثمَّ قالتْ بصوتها الرّنّانِ: «لمَ لا! الجارُ للجارِ، ولكنْ، بصراحةٍ، لقدْ زادَ الأمرُ عنْ حدّهِ. وأنتمْ تعرفونَ أنَّ حالنا ليسَ أفضلَ منْ حالكمْ بكثيرٍ.»

احمرَّ وجهُ يسرى خجلاً وتمتمتْ ببعضِ الكلماتِ غيرِ المفهومةِ، ولكنّها أخذتِ الشّايَ والسّكّرَ وأسرعتْ إلى البيتِ. كانَ بودّها أنْ تصرخَ في وجهِ أمِّ حافظٍ... كانَ بودّها أنْ تتركَ الشّايَ والسّكّرَ وتعودَ إلى بيتها مرفوعةَ الرأسِ، ولكنْ ما كانَ في اليدِ حيلةٌ.

أسرعتْ إلى البيتِ وناولتْ والدتها الشّايَ والسّكّرَ وقالتْ بسرعةٍ: «أنا طالعة يمّا».

«إلى أينَ؟» صاحتْ أمّها.

«لنْ أتأخّرَ... لنْ أتأخّرَ، سأحضرُ كتابًا منْ عندِ زميلتي فدوى.»

شعرتْ يسرى بصعوبةٍ في التّنفّسِ، وكأنَّ حيطانَ بيتها وكلَّ بيوتِ الحيِّ ستجثمُ على صدرها وتخنقها. ما كانَ مشوارُ الكتابِ إلاّ عذرًا ادّعتهُ لأنّها كانتْ بحاجةٍ لأنْ تبتعدَ عنِ البيتِ وما يحملُ منْ مشاكلَ ومصائبَ حلّتْ عليهمْ في الفترةِ الأخيرةِ.

2



على شاطئِ البحرِ

أسرعتْ يسرى باتّجاهِ شاطئِ البحرِ القريبِ منْ منزلها فهوَ ملجأها الوحيدُ. لا يريحها إلاّ البحرُ فهيَ عندما تقفُ أمامهُ تشعرُ وكأنّهُ ينبضُ بالحياةِ والحركةِ، ويتماشى معَ مزاجها ويفهمها كما لا يفهمها أحدٌ. فعندما تشعرُ بالسّعادةِ ترى أمواجهُ تتراقصُ

فرحةً، وعندما تشعرُ بالحزنِ يريحها صوتُ البحرِ الهادرِ بذهابهِ وإيابهِ، وعندما تشعرُ بالغضبِ تعكسُ أمواجُ البحرِ المتلاطمةُ صخبَ المشاعرِ الّتي تدورُ بداخلها. مشتْ يسرى بخطواتٍ ثابتةٍ حتّى بانَ لها البحرُ منْ بعيدٍ، فتنفّستِ الصّعداءَ وشعرتْ أنّها وصلتْ إلى ضالّتها. تركتْ نسماتِ الهواءِ النّاعمةَ تمسحُ وجهها. شدّتِ الجاكيتَ عليها... ففي الطّقسِ بقيّةٌ منْ بردِ الشّتاءِ تبدّدهُ أشعّةُ الشّمسِ الدّافئةُ.

هناكَ عندَ شاطئِ البحرِ كانَ صديقُ والدها الصّيّادُ «أبو أحمدَ»، يتفحّصُ ويصلحُ شباكَ الصّيدِ بالقربِ منْ كوخٍ يُستخدمُ كمخزنٍ خاصٍّ للصّيّادينَ.

رفعَ أبو أحمدَ نظرهُ مرحّبًا وقالَ: «صباحُ الخيرِ يا يسرى، كيفَ حالكِ يا عمّي؟ واللهِ افتقدنا الوالدَ معنا في البحرِ. كانَ نشيطًا وشجاعًا، لا يخافُ زوارقَ البحريّةِ الإسرائيليّةِ. كمْ منْ مرّةٍ اعتقلوهُ وغرّموهُ لأنّهُ ابتعدَ عنِ المنطقةِ الّتي يسمحونَ لنا فيها بصيدِ السّمكِ. طمئنيني، كيفَ حالهُ اليومَ؟»

«الحمدُ للهِ يا عمّي، الوالدُ بصحّةٍ جيّدةٍ.»

«سلّمي لي عليهِ، وسأمرُّ عليهِ بعدَ الظّهرِ إنْ شاءَ اللهُ لنلعبَ "دقّ طاولة شيش بيش".»

«أهلاً وسهلاً بكَ يا عمّي، والدي سيسعدُ بزيارتكَ، ولكنْ أينَ قاربُ والدي يا عمّي؟ هلْ ما زالَ بحالةٍ جيّدةٍ؟» قالتْ يسرى بقلقٍ.

أشارَ أبو أحمد بيدهِ إلى قاربٍ مهملٍ بجانبِ الكوخِ، بالقربِ منْ شِباكِ صيدٍ قديمةٍ وقالَ: «للأسفِ يا ابنتي، يحتاجُ القاربُ إلى صيانةٍ ودهانٍ. كمْ قلتُ لوالدكِ أنْ يبيعهُ ويستفيدَ منْ ثمنهِ. لا تؤاخذيني، ولكنْ أنا وأنتِ نعرفُ أنَّ الوالدَ بحالتهِ هذهِ لنْ يعودَ إلى الصّيدِ أبدًا، وبعدَ أنِ استشهدَ أخوكِ الكبيرُ صالحٌ – رحمهُ اللهُ– لمْ يبقَ لهُ أولادٌ يمتهنونَ مهنةَ الصّيدِ، وأخوكِ جميلٌ ما زالَ طفلاً، وأمامهُ سنواتٌ طويلةٌ قبلَ أنْ يصبحَ راشدًا يساعدُ العائلةَ. سامحَ اللهُ والدكِ... لا يزالُ متمسّكًا بالقاربِ ويرفضُ أنْ يتخلّى عنهُ.»

اقتربتْ يسرى منَ القاربِ وصارتْ تتفحّصهُ، فقلبتهُ على جانبهِ ثمَّ دارتْ حولهُ وتحسّستهُ. كلامُ أبو أحمدَ صحيحٌ، فالقاربُ يحتاجُ

إلى صيانةٍ ودهانٍ ولكنْ لحسنِ الحظِّ لا يوجدُ فيهِ أيُّ ثقوبٍ.
مرّرتْ يدها على القاربِ وابتسمتْ عندما قرأتِ الاسمَ المكتوبَ على جانبهِ "ستّ الكلّ"، وبجانبِ الاسمِ مازالتْ صورةُ العينِ والكفِّ، الّتي سمحَ لها والدها برسمها معهُ، ظاهرةً ولكنّها باهتةٌ. تذكّرتْ كيفَ ساعدتْ والدها في رسمِ العينِ على القاربِ وكيفَ طلبَ منها أنْ تلوّنها باللّونِ الأزرقِ ليبعدَ الحسدَ عنْ عائلتهِ.
سألها آنذاكَ ضاحكًا: «هلْ تعرفينَ منْ "ستُّ الكلِّ؟"»
كمْ كانَ فرحها كبيرًا عندما قالَ والدها: «إنّها أنتِ يا يسرى... أنتِ ستُّ الكلِّ.» لمْ تتمالكْ نفسها فأسرعتْ إلى والدتها تخبرها أنَّ والدها قدِ اشترى لها قاربًا وكتبَ اسمها عليهِ.

تذكّرتِ المرّاتِ الّتي أخذها والدها فيها معهُ إلى الصّيدِ في القاربِ برفقةِ أخيها الكبيرِ صالحٍ –رحمهُ اللهُ– وكمْ كانتْ تفرحُ عندَ سحبِ الشّبكةِ منَ الماءِ معهما، فتخرجُ الشّبكةُ والسمكُ "يلعبط" ويتقافزُ فيها.
وتذكّرتْ كيفَ كانَ صالحٌ يمازحُ أباهُ قائلاً: «غلّة منيحة يابا. الآنَ

يمكنكَ أنْ تعطيَني بعضَ المالِ لأشتريَ بنطلونَ جينزٍ جديدًا؟»

فيردُّ عليهِ والدهُ: «على شرطِ أنْ لا يكونَ منْ هذهِ البنطلوناتِ "المايعة" الّتي يلبسها أصحابكَ، ساحلةً ومهترئةً.»

يضحكُ صالحٌ ويقولُ: «يابا، إنّها موضةُ هذهِ الأيّامِ.»

شعرتْ يسرى بالحزنِ وهيَ تتذكّرُ صالحًا وكيفَ كانَ يلاعبها، وكيفَ كانَ أحيانًا يمازحها حتّى تبكيَ منَ القهرِ ثمَّ يصالحها مرّةً ثانيةً. مضى على استشهادهِ سنةٌ تقريبًا، ولكنّها لنْ تنساهُ أبدًا.



3



مَعَ الذّكرياتِ

بسرعةٍ تخلّصتْ أمُّ صالحٍ منْ أوراقِ الشّايِ القديمةِ الّتي كانتْ قدْ غلتها أكثرَ منْ مرّةٍ، وبدأتْ بعملِ كوبِ شايٍ جديدٍ لزوجها. وبينما كانتْ تنتظرُ أنْ يغليَ الماءُ في الإبريقِ، عملتْ لفّةَ خبزٍ بالزّيتِ والزّعترِ لصغيرها جميلٍ الّذي أكلها بسرعةٍ ثمّ خرجَ ليلعبَ معَ أولادِ الجيرانِ.

وضعتِ الشّايَ ولفّةَ زيتٍ وزعترٍ أخرى على صينيّةٍ وأخذتها إلى حيثُ يجلسُ أبو صالحٍ. كانَ أبو صالحٍ يجلسُ في مكانهِ المفضّلِ في الفناءِ أمامَ المنزلِ تحتَ داليةِ العنبِ، يراقبُ المارّةَ أمامهُ في الشّارعِ.

نظرَ إلى زوجتهِ وتأمّلَ ملامحها الهادئةَ وهيَ تضعُ الصّينيّةَ أمامهُ. ما زالتْ تحتفظُ بجمالها بالرّغمِ منَ الشّيبِ الّذي بدأَ يغزو شعرها.

تذكّرَ يومَ كانَ يراقبها وهيَ في طريقها إلى المدرسةِ -كأنّهُ البارحة- وكيفَ كانَ يطيرُ فَرَحًا إذا تكرّمتْ عليهِ بنظرةٍ واحدةٍ مصحوبةٍ بابتسامةٍ رقيقةٍ تُظهرُ غمّازاتها في وسطِ خديْها. ولكنَّ هذهِ الغمّازاتِ اختفتْ منذُ مدّةٍ. يا ترى هلِ السّببُ أنَّ الغمّازاتِ تختفي معَ تقدّمِ السّنِّ؟ أمْ أنّها لمْ تعدْ تجدُ سببًا للابتسامِ؟ مسكينةٌ هالةُ، كمْ تحمّلتْ وما زالتْ تتحمّلُ.

وضعَ يدهُ فوقَ يدها... وقبلَ أنْ تسحبها قالَ بصوتٍ خافتٍ: «اعذريني يا هالةُ... غصبًا عنّي... واللهِ غصبًا عنّي.»

ابتسمتْ هالةُ وطبعتْ قبلةً على جبينهِ وقالتْ باقتضابٍ:

«أعرفُ...»

أسرعتْ هالةُ إلى المطبخِ والدّموعُ تنهمرُ منْ عينيْها وانشغلتْ بغسيلِ الصّحونِ وترتيبِ المطبخِ، وهيَ تحاولُ أنْ تتماسكَ وتتوقّفَ عنِ البكاءِ. قالتْ لنفسها: «ما جدوى البكاءِ يا هالةُ؟ راح العزيز الغالي... راح صالح.»

وبينما هيَ ترتّبُ الخزانةَ، كادَ أحدُ الأكوابِ أنْ يقعَ وينكسرَ. أمسكتهُ في آخرِ لحظةٍ وهيَ ترتجفُ خوفًا. «كمْ أنا مهملةٌ، كدتُ أنْ أكسرَ الكوبَ!» إنّهُ الكوبُ الخاصُّ الّذي أهداها إيّاهُ صالحٌ بمناسبةِ عيدِ الأمِّ السّنةَ الماضيةَ. لونهُ زهريٌّ وعليهِ قلوبٌ بيضاءُ صغيرةٌ، وكانَ قدْ وضعَ فيهِ بعضَ حبّاتٍ منَ الشّوكولاتةِ. كمْ ضحكتْ يومها لأنّهُ كعادتهِ دخلَ البيتَ كالعاصفةِ وطلبَ منها أنْ تغمضَ عينيْها... حَضَنَها وأعطاها الكوبَ.

ساعدها على فكِّ غلافِ الهديّةِ، وأَكَلَ معظمَ حبّاتِ الشّوكولاتةِ الّتي كانَ يعشقها وهوَ يضحكُ: «ولا يهمّك يمّا، سأحضرُ لكِ غيرها.»

تكادُ تسمعُ صوتهُ وهوَ ينادي: «يمّا أنا هون! شو في على الغداء؟

راح أموت من الجوع، ولازم أروح أشوف أصحابي بعد الظهر.»
فتسرعُ كيْ تحضّرَ لهُ الطّعامَ وتجلسَ معهُ حتّى ينتهيَ من تناولهِ... تستمعُ لهُ وهوَ يحكي أخبارَ الحارةِ وأخبارَ أصحابهِ.
كلّما أغمضتْ عينيْها رأتهُ أمامها بقامتهِ الفارهةِ وشعرهِ البنيِّ المجعّدِ وغمّازيْهِ اللّذينِ ورثهما منها. كمْ تتمنّى لوْ...

4



صوتُ انفجارٍ

صوتُ انفجارٍ هزَّ المنطقةَ وأيقظَ هالةَ من شريطِ ذكرياتها فانتفضتْ وكأنَّ تيّارًا كهربائيًّا مسّها. دخلَ جميلٌ مسرعًا كالطّلقِ إلى داخلِ البيتِ، واختبأَ في حِضْنِها وهوَ يبكي ويقولُ: «يمّا... يمّا... يمّا... هلْ ستأتي الطّائراتُ مرّةً ثانيةً؟ هلْ سيطلقونَ صاروخًا على بيتنا ونُستشهَدُ مثلَ صالحٍ؟»

ضمّتهُ هالةُ بكلِّ قوّةٍ وهيَ تنظرُ حولها بقلقٍ حتّى صاحَ قائلاً :
«يمّا خنقتيني.»
مسحتْ دموعهُ وأمطرتْ جبهتهُ بقبلاتٍ سريعةٍ وهيَ تحاولُ التّخفيفَ منْ روعهِ قائلةً: «لا... لا يا جميلُ، كلُّ شيءٍ سيكونُ على ما يرامُ... لا تخفْ ياحبيبي... لا تخفْ... أنا هنا بقربكَ.»

سمعتْ أبا صالحٍ يصرخُ منَ الفناءِ: «يا جماعة! لا تخافوا! هذهِ فقطْ طائراتٌ إسرائيليّةٌ تكسرُ جدارَ الصّوتِ. أولاد الكلب، يريدونَ أنْ يرعبونا. ألا يكفينا ما نحنُ فيهِ؟»
نظرَ جميلٌ إلى والدتهِ ثمَّ إلى بنطالهِ المبلّلِ بخجلٍ. قالتْ والدتهُ: «ولا يهمّك يا جميل... بسيطة... بسيطة.» ثمَّ ساعدتهُ ليغيّرَ ملابسهُ.
جلسَ جميلٌ على الكنبةِ منهكًا منْ شدّةِ الرّعبِ الّذي أصابهُ، ووضعَ إبهامهُ في فمهِ، ثمَّ تكوّرَ وزاغَ نظرهُ في الفضاءِ أمامهُ.
أسرعتْ يسرى تدخلُ البيتَ لاهثةً تجرُّ كرسيَّ والدها وتنظرُ حولها بعصبيّةٍ: «هلْ أنتمْ بخيرٍ؟ سمعتُ صوتَ الانفجارِ وأنا

في طريقِ العودةِ إلى البيتِ، ولكنَّ كلَّ منْ في الشّارعِ يقولُ إنّها طائراتٌ تكسرُ حاجزَ الصّوتِ.»

نظرتْ إلى جميلٍ المستلقي على الكنبةِ بهدوءٍ على غيرِ عادتهِ وأسرعتْ نحوهُ. طبطبتْ على رأسهِ ومسّدتْ شعرهُ وقالتْ: «جميلُ... حبيبي، لا تخفْ، لقدْ ذهبتِ الطائراتُ الآنَ... هلْ أقرأُ لكَ قصّةً؟»

انتعشَ جميلٌ وجلسَ قائلاً: «نعمْ... احكي قصّةً عنّي وأنا بطلٌ... القصّةَ الّتي حكيتِها لي المرّةَ الماضيةَ عنْ نُقّيفتي السّحريّةِ الّتي أضعُ فيها حجرًا وأصوّبها على الطّائراتِ الإسرائيليّةِ فتقعُ... بوم... بوم... كلُّها... كلُّها ولا يبقى هناكَ طائرةٌ إسرائيليّةٌ واحدةٌ ترمينا بالصّواريخِ.»

ضحكتْ يسرى وجلستْ تحكي لجميلٍ القصّةَ ووالدها ووالدتها يستمعانِ إليها معَ جميلٍ بكلِّ اهتمامٍ.

5



ماذا لوْ؟

في تلكَ اللّيلةِ وبعدَ أنْ نامَ الجميعُ لمْ تغادرْ صورةُ "ستّ الكلّ" ذهنَ يسرى. عادتْ بذاكرتها إلى أيّامٍ سعيدةٍ معَ عائلتها، عندما كانَ والدها يدخلُ البيتَ بعدَ بيعِ صيدهِ في سوقِ السّمكِ حاملاً مؤونةً منْ خضارٍ وفاكهةٍ وغيرِها منَ احتياجاتِ البيتِ.

تذكّرتْ رائحةَ السّمكِ المقليِّ الّتي كانتْ تجتاحُ البيتَ يومها، ثمَّ "اللمّة" على طاولةِ الغداءِ... وصالحٌ معهمْ طبعًا... يضحكُ ويمزحُ كعادتهِ ويتجادلُ معَ والدهِ في أمورِ السّياسةِ، فيقولُ: «أنا لستُ معَ هذا الفصيلِ أو ذاكَ... أنا معَ فلسطين.» ثمَّ يتكلّمُ عنِ الديمقراطيّةِ وعنِ الإصلاحِ وعنْ قوّةِ الشّبابِ.

أمّا والدها فكانَ يقولُ: «إحنا شو فهّمنا بالسّياسة.» ويأخذُ نفسًا منَ الأرجيلةِ ثم ينفثُ الدّخانَ عاليًا.

فتتمتمُ والدتها: «كلّهم مثل بعضهم، همّهم الكرسي فقط، مش عارفين يوقفوا إيد واحدة في وجه الاحتلال.»

وبينما كانتْ يسرى غارقةً في ذكرياتها خطرتْ على بالها فكرةٌ. ماذا لوْ وجدتْ طريقةً لإصلاحِ القاربِ، وتولّتِ الصّيدَ حتّى يكبرَ جميلٌ ويستلمَ مكانها. والدها يقولُ دائمًا إنّها تساوي مائةَ ولدٍ، والقاربُ على اسمها فهيَ «ستّ الكلّ». ألنْ يكونَ هذا الحلُّ أفضلَ منَ انتظارِ الحسناتِ منَ الجمعيّاتِ الخيريّةِ والجيرانِ؟

ولكنْ منْ أينَ تحصلُ على المالِ الكافي لشراءِ الدّهانِ والمستلزماتِ

الأخرى لصيانةِ القاربِ؟ وكيفَ تقنعُ أهلها بالسّماحِ لها بأنْ تصبحَ صيّادةً؟

استحوذتْ على عقلها هذهِ الفكرةُ... وبانتْ خيوطُ الفجرِ منْ خلفِ السّتارةِ، وملأَ صوتُ عصافيرِ الصّباحِ فناءَ البيتِ والنّومُ يراوغها ويهربُ منها في دوّامةٍ منَ الأفكارِ والمشاريعِ.

في ذلكَ اليومِ، نبّهتها المعلّمةُ في المدرسةِ أكثرَ منْ مرّةٍ لأنّها كانتْ شاردةَ الذّهنِ لا تركّزُ على الشّرحِ في الصّفِّ.

نكزتها زميلتها فدوى الجالسةُ على الدُّرجِ الملاصقِ لدُرْجِها وهيَ تهمسُ قائلةً: «ما بكِ يا يسرى سرحانةً منذُ الصّباحِ؟ يبدو أنّهُ لم يغفُ لكِ جفنٌ طولَ اللّيلِ. ما القصّةُ؟ قولي لي ما الّذي يشغلُ بالكِ؟ ألستُ زميلتكِ؟ ألستُ صديقتكِ؟ لنْ أخبرَ أحدًا!»

كانتْ يسرى تعرفُ أنَّ شغلَ فدوى الشّاغلَ الاستقصاءُ عنْ أخبارِ الجميعِ، فهيَ تنتظرُ أنْ تسمعَ أخبارًا مثيرةً لتنقلها إلى باقي الزّميلاتِ؛ لهذا أجابتها يسرى: «أبدًا.. لا شيءَ يا فدوى ولكنْ كنتُ أعاني من ألمٍ في بطني... تعرفينَ...»

هزّتْ فدوى رأسـها بتعاطفٍ وهيَ تقولُ: «آه .. أعرفُ هذا الألمَ، أعاني منهُ كلَّ شـهرٍ أنا أيضًـا... أفضلُ شيءٍ لتخفيفهِ شرابُ القرفةِ. هلْ جرّبتهِ؟»

6



صديقا العمرِ

بعدَ أنِ انتهى أبو أحمدَ منْ تصليحِ شباكهِ... عملَ لنفسهِ كوبًا منَ الشّاي الأسودِ الشّديدِ الحلاوةِ، وجلسَ خارجَ كوخِ الصّيّادينَ يستمعُ إلى صوتِ البحرِ، يعلو وينخفضُ... يشتدُّ ويضعفُ. رشفَ منْ كوبِ الشّايِ رشفةً بصوتٍ عالٍ، وتأمّلَ بنظرهِ الأفقَ البعيدَ وهوَ يفكّرُ بصديقهِ أبي صالحٍ. مسكينٌ أبو صالحٍ...

تراكمتِ المصائبُ عليهِ تباعًا... إنّهُ لا يستحقُّ كلَّ هذا، فهوَ رجلٌ طيّبٌ يحبُّ مساعدةَ النّاسِ، ولكنْ لا اعتراضَ على مشيئةِ اللهِ.
لفَّ شِباكهُ وأدخلها إلى كوخِ الصّيّادينَ، ووضعها في الزّاويةِ المخصّصةِ لهُ ولعدّتهِ. وكما وعدَ يسرى استعدَّ للذّهابِ لزيارةِ صديقهِ أبي صالحٍ.

في بادىءِ الأمرِ وبعدَ حادثةِ النّفقِ مباشرةً، كانَ بيتُ أبي صالحٍ لا يفرغُ منَ الزّوّارِ والأقاربِ والأصدقاءِ والمعارفِ. ولكنْ بعدَ مدّةٍ انشغلَ الجميعُ بأمورهمُ الخاصّةِ، فصاروا لا يمرّونَ عليهِ إلّا في المناسباتِ، ولكنَّ أبا أحمدَ لمْ يتركهُ وظلَّ يزورهُ كلَّ بضعةِ أيّامٍ... يحكي لهُ أخبارَ الصّيّادينَ والبحرِ، ويتناقشُ معهُ في أمورِ السّياسةِ ووضْعِ البلدِ، وأحيانًا يلعبُ معهُ "شَدّة" أوْ "طاولة شيش بيش". كانَ أبو صالحٍ ينتظرُ زيارةَ صديقهِ على أحرَّ منَ الجمرِ فهوَ صديقهُ منذُ أيّامِ الطّفولةِ، كانَ يلعبُ معهُ كرةَ القدمِ في حاراتِ غزّةَ، وعلى مرِّ السّنينَ شاركهُ أفراحهُ ووقفَ بجانبهِ في كلِّ المحنِ الّتي أصابتهُ.

رحّبَ أبو صالحٍ بصديقهِ بحرارةٍ، وقضى معهُ زهاءَ ساعتينِ وهما يتسامرانِ ويلعبانِ "طاولة".

قهقهَ أبو أحمدَ قائلاً وهوَ ينظرُ منَ النّافذةِ: «لقدْ أظلمتِ الدّنيا يا صديقي، ويجبُ أنْ أعودَ إلى المنزلِ، أمُّ أحمدَ والعيالُ في انتظاري، هيَ دائمًا تقولُ لي: عندما تذهبُ إلى صديقكَ أبي صالحٍ تنسى نفسكَ وتنسانا.» ثمَّ ابتسمَ قائلاً: «سأمرُّ عليكَ بعدَ عدّةِ أيّامٍ لأغلبكَ مرّةً أُخرى بلعبةِ الطّاولةِ.»

ضحكَ أبو صالحٍ وصاحَ: «هذهِ كانتْ صدفةً يا أبا أحمدَ، لنْ تغلبني ثانيةً... الله معك، سلّمْ على الأهلِ والأصحابِ.»

توقّفَ أبو أحمدَ وهوَ يَهُمُّ بالخروجِ منَ البابِ وقالَ: «صحيحٌ يا أبا صالحٍ، ألنْ تغيّرَ رأيكَ وتبيعَ "ستّ الكلّ"؟ أعرفُ صديقًا مهتمًّا بشراءِ قاربكَ.»

تغيّرتْ ملامحُ أبي صالحٍ وقالَ غاضبًا: «كمْ منْ مرّةٍ قلتُ لكَ ألّا تذكرَ لي هذا الموضوعَ، لنْ أبيعَ قاربي ما دمتُ حيًّا!»

أجابَ أبو أحمدَ بارتباكٍ وحرجٍ: «خلص يا أخي، لا تغضبْ، لنْ أذكرَ لكَ هذا الموضوعَ ثانيةً.»

7



على منْ يقعُ اللّوم؟

بعدَ أنْ غادرَ أبو أحمدَ، جلسَ أبو صالحٍ غارقًا في أفكارِهِ وقدْ بدأَ الظّلامُ يتسلّلُ إلى غرفةِ المعيشةِ. دخلتْ هالةُ الغرفةَ فطلبَ منها ألّا تشعلَ الضّوءَ وأنْ تتركهُ وحدهُ، فخرجتْ وهيَ تشعرُ بالقلقِ وتتساءلُ عمّا يمكنُ أنْ يكونَ قدْ أزعجَ زوجها. ألمْ يكنْ يضحكُ ويمزحُ معَ أبي أحمدَ قبلَ قليلٍ؟

ببطءٍ هبطَ الظّلامُ على الغرفةِ كستارٍ مخمليٍّ أسودَ. شعرَ بقشعريرةٍ تمرُّ في جسدهِ وهوَ يتذكّرُ ظلمةَ النّفقِ وضوءَ المصباحِ المتأرجحِ أمامهُ. تذكّرَ رائحةَ الرّطوبةِ المختلطةَ برائحةِ العرقِ، وصوتَ تنفّسِ الشّبابِ المرافقينَ لهُ. لمْ تكنْ هذهِ أوّلَ رحلةٍ لهُ عبرَ النّفق؛ فقدْ ذهبَ معَ الشّبابِ مرّةً لإحضارِ لوازمَ للبيتِ.

كلُّ شيءٍ في غزّةَ يمرُّ عبرَ الأنفاقِ... النّاسُ... الحيواناتُ... البضائعُ وحتّى السيّاراتُ الكبيرةُ .

أصبحَ حالُ أبي صالحٍ كحالِ أهلِ غزّةَ يردّدُ معَ الجميعِ «النّاس عايزة تعيش.»

كانَ المسؤولُ عنْ هذا النّفقِ أحدَ أقربائهِ وقدْ سمحَ لهُ بمرافقتهِ في إحدى المرّاتِ، وعندما نجحتْ هذهِ الرّحلةُ شعرَ أنَّ الموضوعَ سهلٌ، ثمَّ إنهُ استمتعَ بالمغامرةِ الّتي أشعرتهُ أنّهُ ما زالَ في عنفوانِ شبابهِ؛ لذلكَ قرّرَ أنْ يذهبَ للمرّةِ الثّانيةِ ليحضرَ "موتورًا" جديدًا لقاربِ الصّيدِ.

صرخَ بصمتٍ وهوَ يستعيدُ ما حدثَ في ذلكَ المشوارِ المشؤومِ...

لوْ أنّهُ سمعَ كلامَ هالةَ الّتي رجتهُ ألّا يذهبَ ويترك الشّبابَ يحضرونَ لهُ "الموتورَ"، فقدْ قالتْ لهُ حينها: «أنتَ كبرتَ على هذهِ الأمورِ يا أبا صالحٍ، لا داعيَ لأنْ تذهبَ بنفسكَ... لا داعيَ.»
ولكنّه للأسفِ الشّديدِ لمْ يأخذْ بنصيحةِ زوجتهِ وأصرَّ على الذّهابِ وهوَ يقولُ لها محاولاً طمأنتها: «لا تشغلي بالكِ عليّ يا هالةُ. أعدكِ أنّها ستكونُ آخرَ مرّةٍ أذهبُ فيها بنفسي عبرَ النّفقِ.»

أصبحتْ هذهِ الأنفاقُ الّتي صارَ عددها بالمئاتِ شريانَ الحياةِ الرّئيسيَّ في غزّةَ. اختفى الاستهجانُ الطبيعيُّ منْ أنَّ أهلَ غزّةَ أصبحوا مثلَ الخلدِ يحفرُون أنفاقًا ليحصلوا على قوتِ يومهِم وعلى احتياجاتهِم. وكأشياءَ غيرِ منطقيّةٍ كثيرةٍ أخرى أصبحتِ الأنفاقُ شيئًا عاديًّا في حياتهمُ اليوميّةِ تمامًا مثلَ الغاراتِ الإسرائيليّةِ المتكرّرةِ... شيئًا عاديًّا... متوقّعًا مألوفًا، كُتِبَ على أهالي غزّةَ أنْ يتعايشوا معَهُ مثلما كُتِبَ عليهمْ أنْ يتعايشوا معَ هذا الحصارِ الخانقِ.
على منْ يقعُ اللّومُ على ما حدثَ لهُ؟ اللّائحةُ طويلةٌ... هلْ يلومُ

إسرائيلَ الّتي دكّتْ غاراتها الأرضَ دكًّا قبلَ أسبوعٍ فأضعفتِ الأنفاقَ متعمّدةً؟ أمْ يلومُ الشّبابَ الّذينَ لمْ يتمكّنوا منْ بناءِ أنفاقٍ أقوى تتحمّلُ الدكَّ والمطرَ؟

هل يلومُ إسرائيلَ على محاصرةِ غزّةَ وإغلاقها؟ أمْ هلْ يلومُ أميركا والعالمَ الغربيَّ على التّحيّزِ لإسرائيلَ والرّضا بما يحدثُ لهمْ؟ وماذا عنِ الأشقّاءِ العربِ الّذينَ تبنّوْا وظيفةَ السّجّانِ وصارتْ مهمّتهمْ حمايةَ حدودِ إسرائيلَ؟ يقولونَ إنَّ غزّةَ أكبرُ سجنٍ في العالمِ. هزّ رأسهُ وابتسمَ بمرارةٍ... إنّهُ الآنَ في سجنٍ صغيرٍ داخلَ سجنٍ أكبرَ.

في الحقيقةِ هوَ يلومُ نفسهُ أكثرَ ما يلومُ... آخ لوْ أنّهُ فقطْ سمعَ كلامَ هالةَ ولمْ يذهبْ داخلَ النّفقِ في ذلكَ اليومِ المشؤومِ.

أضاءتْ هالةُ المصباحَ وقالتْ لهُ برفقٍ: «لماذا تعذّبُ نفسكَ يا عزيزي؟ تعالَ نأكلُ لقمةً معًا، الأولادُ ينتظرونكَ.»

8



أصدقاءُ صالحٍ

منذُ أنِ استشهدَ صالحٌ، يتعمّدُ أصدقاؤهُ أنْ يمرّوا على البيتِ لزيارةِ عائلتهِ كلّما سنحتْ لهمُ الفرصةُ. كانتْ هالةُ تنتظرُ زيارتهمْ بفارغِ الصّبرِ فهمْ يذكّرونها بصالحٍ، فهيَ تراهُ منْ خلالِ ضحكاتهمْ وحماسهمْ، وأحيانًا تتخيّلُ أنّهُ سيدخلُ عليهمْ في أيِّ لحظةٍ ويشاركهمُ الحديثَ.

رحّبتْ هالةُ بأسعدَ، صديقِ طفولةِ صالحٍ، وأختهِ التّوأمِ سهادَ، وكانَ معهما أيضًا ماهرٌ وأختهُ دعدٌ.

كانتْ يسرى تستمتعُ بهذهِ الزّياراتِ وتنتظرها على أحرَّ منَ الجمرِ. فهيَ تحبُّ سماعَ القصصِ عنْ صالحٍ وتشعرُ أحيانًا أنّها لمْ تكنْ تعرفُ صالحًا منْ قبلُ، بالنّسبةِ لها كانَ أخاها الكبيرَ الّذي يلاعبها ويشاكسها. أصبحتِ الآنَ تنظرُ إليهِ بعيونٍ جديدةٍ.

عرفتْ يسرى منْ أصدقائهِ كيفَ كانَ صالحٌ أوّلَ منْ يتطوّعُ لمساعدةِ الآخرينَ... وكيفَ كانَ يحبُّ المزاحَ وعملَ المقالبِ بأصدقائهِ حتّى إنّهمْ كانوا يلقّبونهُ «بأبي المقالبِ».

استغربتْ يسرى أكثرَ عندما عرفتْ أنَّ صالحًا كانَ يحبُّ الموسيقى خاصّةً موسيقى "الرّاب" وأنّهُ كانَ يتعلّمُ العزفَ على "الغيتارِ" ويشاركُ أصدقاءهُ في فرقةٍ موسيقيّةٍ. قالَ أسعدُ ليسرى عندما رأى استغرابها:

«نعمْ يا يسرى، كانَ لصالحٍ دورٌ أساسيٌّ في فرقتنا، وكانَ يكتبُ كلماتِ الأغاني ويساعدُ في تلحينها، لكنّهُ لمْ يذكرْ هذا لكمْ لأنَّهُ كانَ يظنُّ أنَّ اهتمامهُ بالموسيقى لنْ يعجبكمْ.»

كانَ أسعدُ وصالحٌ "أعزَّ الأصدقاءِ" منذُ أنْ كانا في الصفِّ الأوّلِ الابتدائيِّ، كلٌّ واحدٍ منهما يكمّلُ الآخرَ بشخصيّتِهِ الّتي تميّزهُ. فصالحٌ كانَ اجتماعيًّا... طويلاً وأسمرَ، شعرهُ مجعّدٌ وقدْ ورثَ غمّازاتِ والدتهِ الّتي أعطتْ ابتسامتهُ جاذبيّةً خاصّةً. أمّا أسعدُ فقد كان متوسّطَ الطّولِ، حنطيَّ اللّونِ، شعرهُ أملسُ يميلُ إلى اللّونِ الأشقرِ، يلبسُ نظّارةً طبّيّةً... كانَ أصدقاؤهُ يمازحونهُ ويقولونَ لهُ بعدَ أنْ يقرأَ لهمْ كلماتٍ كتبها للأغاني: «أنتَ شاعرٌ يا أسعدُ وتشبهُ محمود درويش.»

كانَ أسعدُ يفرحُ في سرّهِ، فمحمود درويش شاعرهُ المفضّلُ، وهوَ مثلهُ هادئٌ وحالمٌ... قليلُ الحديثِ ولهُ نظرتهُ الخاصّةُ في الحياةِ.

قالَ أسعدُ موجّهًا كلامهُ لأمِّ صالحٍ: «لقدِ انتهينا منَ التّمرّنِ على الأغاني وهناكَ أغنيةٌ شاركَ صالحٌ في كتابتها. كلماتها رائعةٌ تتحدّثُ عنِ الأوضاعِ في غزّةَ وعنِ الحرّيّةِ والديمقراطيّةِ والاحتلالِ... لا أريدُ أنْ أضايقكِ يا خالةُ، ولكنْ هلْ تحبّينَ أنْ تستمعي إلى الأغنيةِ أمْ أنَّ هذا سوفَ يزعجكِ؟»

قالتْ أمُّ صالحٍ وفي صوتها حشرجةٌ: «لا... لا مانعَ... بلْ أحبُّ أنْ أسمعَ الأغنيةَ الّتي شاركَ صالحٌ في كتابتها... ولكنْ لا يوجدُ معكمْ آلاتٌ موسيقيّةٌ!»

ضحكَ ماهرٌ وقالَ: «نستطيعُ أنْ نغنّيَ بقليلٍ منَ الإيقاعِ فقطْ.»

استمعتْ هالةُ إلى الأغنيةِ باهتمامٍ واستغرابٍ فهيَ لمْ تكنْ كأيِّ أغنيةٍ سمعتها منْ قبلُ. دمعتْ عيناها وهيَ تفكّر أنَّ صالحًا ساهمَ في كتابتها، وتمنَّتْ لوْ أنّهُ كانَ موجودًا معهمُ الآنَ يغنّي ويضحكُ. أخفتْ هالةُ دمعتها وقالتْ ضاحكةً: «ولكنْ ما هذهِ الأغنيةُ الغريبةُ؟ واللهِ لمْ أفهمْ منها شيئًا! كلامٌ سريعٌ... سريعٌ ولكنْ... كلُّ شيءٍ منكمْ جميلٌ!»

ضحكَ الشّبابُ وقالَ ماهرٌ: «هذهِ موسيقى "الرّاب" يا خالةُ... البعضُ لا يحبّها ويعتبرُ أنّنا نقلّدُ الغربَ بها ولكنّها موسيقى تعبّرُ عنِ الطّبقاتِ المسحوقةِ في كلِّ العالمِ ووجدنا فيها ما يُخرِجُ طاقتنا ويعبّرُ عنْ أوضاعنا.»

ساعدتْ دعدُ يسرى في حملِ أكوابِ العصيرِ إلى المطبخِ. كانتْ

دعدٌ تكبرُ يسرى بسنتينِ وتستعدُّ للدّخولِ إلى الجامعةِ. وهيَ تتكلّمُ عنْ مشاريعها للمستقبلِ بثقةٍ، فهيِ تفكّرُ في دخولِ كلّيّةِ الهندسةِ وترفضُ الكثيرَ منَ الحواجزِ الّتي يفرضها المجتمعُ على الفتياتِ في غزّةَ، فتقولُ بصوتٍ عالٍ: «كلُّ شيءٍ ممنوعٌ... ممنوعٌ... حتّى التّفكيرُ ممنوعٌ، يريدوننا أنْ نكونَ قطيعًا منَ الخرافِ.»

كانتْ يسرى تنظرُ بإعجابٍ إليها... بشعرها القصيرِ ولباسها المميّزِ الذي يعكسُ شخصيّتها المتمرّدةَ. شعرتْ يسرى بأنَّ دعدًا ستفهمها وأنَّ بالإمكانِ أنْ تساعدها في مشروعها فأخبرتها عنْ موضوعِ القاربِ، وسألتها كيفَ يمكنُ أنْ تجنيَ بعضَ المالِ لشراءِ الدّهانِ ومستلزماتِ الصّيانةِ للقاربِ.
تحمّستْ دعدٌ وقالتْ ليسرى وهيَ تشدُّ على يدها: «ولا يهمّك يا يسرى. الحلُّ عندي! قابلينا يومَ الجمعةِ صباحًا عندَ القاربِ.»

9



ماذا سيقولُ النّاسُ؟

في صباحِ يومِ الجمعةِ، في السّاعةِ المتّفقِ عليها خرجتْ يسرى منَ البيتِ ومعها جميلٌ وهيَ تقولُ لأمّها: «سآخذ جميلاً معي لنتمشّى قليلاً على شاطئِ البحرِ.» قالتْ والدتها بقلقٍ: «انتبهي لجميلٍ حتّى لا يقعَ في البحرِ ويغرقَ. أنتِ تعرفينَ كمْ هوَ كثيرُ الحركةِ.»

ضحكَ جميلٌ وقالَ: «لا تخافي يمّا أنا صرت كبير، شوفي عضلاتي.»

ربّتتْ والدتهُ على رأسهِ بحنانٍ ثمَّ قالتْ ليسرى: «سيمرُّ أبو أحمدَ بوالدكِ ليأخذهُ معهُ إلى صلاةِ الجمعةِ. لا تتأخّرا عنْ وجبةِ الغداءِ. سأطبخُ لكمُ اليومَ مجدّرةً معْ سلطةٍ غزّاويّةٍ حارّةٍ.»

ضحكتْ يسرى قائلةً: «زهقنا المجدّرة يمّا!»

كانَ شاطئُ البحرِ يبعدُ مسافةَ عشرِ دقائقَ سيرًا على الأقدامِ. مشتْ يسرى وجميلٌ يتقافزُ حولها فرحًا فهوَ يستمتعُ بالذّهابِ إلى شاطئِ البحرِ حيثُ يستطيعُ أنْ ينطلقَ بحرّيّةٍ.

عندما اقتربتْ يسرى منَ البحرِ رأتْ أصدقاءَ صالحٍ مجتمعينَ أمامَ قاربها "ستّ الكلّ"، نعمْ، قاربها... لقدْ بدأتْ يسرى تفكّرُ فيهِ على أنّهُ قاربها.

لوّحتْ لهمْ منْ بعيدٍ وركضتْ باتّجاههمْ. وجدتهمْ يتفحّصونَ القاربَ ومعهمْ علبٌ منَ الدّهانِ وفراشٍ وورقُ زجاجٍ.

صرخت يسرى: «لا أصدّقُ! لقدْ أحضرتمُ الدّهانَ والعدّةَ لتجديدِ

القاربِ. شكرًا! شكرًا لكمْ!»

ضحكَ أسعدُ وهوَ يقولُ: «هذا أقلُّ ما يمكنُ أنْ نقومَ بهِ لعائلةِ صديقنا صالحٍ... لقدِ اشتركنا جميعًا بجمعِ المالِ وشراءِ الدّهانِ. وبعدَ أنَ فحصنا القاربَ وجدنا أنّهُ ما زالَ في حالةٍ جيّدةٍ ولكنْ يحتاجُ إلى شدٍّ هنا وهناكَ، وطبقةٍ منَ الدّهانِ فيرجعُ جديدًا. أوّلُ ما علينا أنْ نفعلهُ هوَ أنْ نزيلَ الدّهانَ القديمَ بورقِ الزّجاجِ.»

وزّعَ أسعدُ ورقَ الزّجاجِ على الجميعِ وقالَ: «كلُّ واحدٍ يركّزُ على منطقةٍ منَ القاربِ.»

صاحتْ يسرى: «لحظةً! لحظةً! توقّفوا!»

نظرَ الجميعُ إليها باستغرابٍ، فقالتْ لهمْ ببطءٍ: «عفوًا... ولكنْ كنتُ أريدُ أنْ أطلبَ منكمْ أن تُبقوا على اسمِ القاربِ ورسمةِ الكفِّ والعينِ.» وأخبرتهمْ عنْ قصّةِ الرّسمةِ.

قالَ لها ماهرٌ بلطفٍ: «قدْ يكونُ منَ الأفضلِ أنْ ندهنَ القاربَ كلّهُ! ولكنْ ما رأيُكِ بعدَ الانتهاءِ منَ الدّهانِ أنْ تقومي أنتِ وجميلٌ بكتابةِ الاسمِ مرّةً ثانيةً ورسمِ صورةِ الكفِّ وعينِ الحسودِ؟»

دمعتْ عينا يسرى ولكنّها هزّتْ رأسها موافقةً.

سألها أسعدُ باهتمامٍ: «هلْ يعرفُ العمُّ أبو صالحٍ بما نقومُ بهِ يا يسرى؟»

أجابتْ يسرى بسرعةٍ: «لا يا أسعدُ أبدًا... أبدًا، فهذا موضوعٌ حسّاسٌ بالنسبةِ إليهِ، وقدْ أحببتُ أنْ أفاجئهُ بعدَ الانتهاءِ منْ كلِّ شيءٍ.»

بدا على ماهرٍ الاستغرابُ وهوَ يسألها: «اعذريني يا يسرى ولكنْ من سيستخدمُ القاربَ للصّيدِ؟ منَ الواضحِ أنَّ والدكِ لا يقدرُ على هذا بعدَ الحادثِ الّذي أقعدهُ... وجميلٌ ما يزالُ طفلاً.»

نظرتْ يسرى إلى أصدقاءِ أخيها صالحٍ وقالتْ لهمْ بتحدٍّ:

«أنا... نعمْ، أنا سأستخدمُ القاربَ لصيدِ السّمكِ، تمامًا مثلما فعلَ والدي وجدّي من قبلهِ. فمنذُ نعومةِ أظافري وأنا أرافقُ والدي في رحلاتهِ الصّباحيّةِ لصيدِ السّمكِ. أعرفُ ما يجبُ أنْ أفعلَ وسأقومُ بهِ.»

قالَ أسعدُ باستغرابٍ: «ولكنْ هلْ سيوافقُ والدكِ على ذلكَ؟»

لمعتْ عينا يسرى بإصرارٍ وهيَ تقولُ: «سأقنعهُ بذلكَ! هذا القاربُ

يعني الكثيرَ لهُ وهوَ لا يريدُ أنْ يخسرهُ، وبصراحةٍ نحنُ بحاجةٍ إلى مصدرٍ للدّخلِ يساعدنا على تحمّل تكاليفِ الحياةِ.»

نظرتْ سهادُ إلى يسرى وقالتْ باستهجانٍ واضحٍ: «ولكنْ يا يسرى ماذا سيقولُ النّاسُ عنكِ؟ منْ سمعَ بفتاةٍ صيّادةٍ؟ وهلْ ستتركينَ المدرسةَ؟»

قالتْ يسرى بغضبٍ: «ليقولوا ما يقولونَ... أنا لا أقترفُ خطأً، أنا أساعدُ عائلتي فقطْ وأحافظُ على مهنةِ العائلةِ. وإنْ شاءَ اللهُ عندما يكبرُ جميلٌ سيستمرُّ هوَ في الصّيدِ. أمّا بالنسبةِ للمدرسةِ فسأقومُ بهذا العملِ في أيّامِ العطلِ، وعلى كلِّ حالٍ نحنُ الآنَ على أبوابِ العطلةِ الصّيفيّةِ.»

صاحتْ دعدٌ بإعجابٍ: «كلامُ يسرى صحيحٌ، ما المشكلةُ إذا خرجتْ للصّيدِ بقاربِ والدها؟ ولا يهمّك يا يسرى، حقًّا إنّكِ بطلةٌ. هلْ تسمحينَ لي بمرافقتكِ يومًا ما؟»

معَ أنَّ سهادَ ودعدًا "أعزُّ الصّديقاتِ" إلّا أنَّ لكلٍّ منهما شخصيّةً مختلفةً عنِ الأخرى. فدعدٌ متمرّدةٌ ومرحةٌ واجتماعيّةٌ، أمّا سهادُ فهيَ هادئةٌ وحذرةٌ وتأخذُ الأمورَ بجدّيّةٍ. موضوعُ يسرى أقلقها

فقالتْ لدعدٍ: «لا يا دعدُ... لا تشجّعيها.»

قالَ ماهرٌ باهتمامٍ: «ولكنْ هلْ تعرفينَ كيفيّةَ الإبحارِ في القاربِ؟ هلْ تتقنينَ الصّيدَ؟ منَ المهمِّ ألّا تعرّضي نفسكِ للخطرِ يا يسرى.»

قالتْ يسرى مُطَمْئِنةً ماهرًا: «لا تقلقْ عليَّ يا ماهرُ، فقدْ كنتُ أخرجُ معَ والدي وصالحٍ للصّيدِ دائمًا وأساعدهما. وكانَ والدي يعلّمني ويتركني أبحرُ وحدي وهوَ يراقبني سعيدًا لأنّني تعلّمتُ الصّيدَ بسرعةٍ.»

هزَّ ماهرٌ رأسهُ بتفهّمٍ فهوَ نفسهُ يواجهُ مشاكلَ في مجتمعِ غزّةَ لأنّهُ يرفضُ أنْ يلتزمَ بالشّكلِ المقبولِ لشابٍّ في عمرهِ. فقدْ أطلقَ شعرهُ وربطهُ ربطةَ "ذيلِ الحصانِ"، وكذلكَ أطلقَ لحيتهُ الّتي كانَ منَ الصّعبِ أنْ تفسّرَ بأنَّ أسبابها دينيّةٌ. وكانَ لباسهُ المفضّلُ بنطالَ جينزٍ مرقّعًا وقميصًا قطنيًّا أسودَ بالإضافةِ إلى أنّهُ المُغنّي الرّئيسيُّ في فرقةِ "راب".

أوقفتهُ الشّرطةُ أكثرَ منْ مرّةٍ في الشّارعِ، وهدّدهُ بعضُ أفرادها بقصِّ شعرهِ إذا لمْ يغيّرْ منْ هيئتهِ بما يتناسبُ معَ مجتمعِ غزّةَ المحافظِ.

أمّا أسعدُ الّذي كانَ يتابعُ الحديثَ بكلِّ اهتمامٍ وهدوءٍ، فقدْ بدأَ ينظرُ إلى يسرى نظرةً مختلفةً وكأنّهُ يراها لأوّلِ مرّةٍ. كلُّ هذا يصدرُ منْ أختِ صالحٍ الصّغرى الّتي ما زالَ يتذكّرُ كيفَ كانَ يشدُّ ضفيرتها ويغضبها فتطاردهُ منْ مكانٍ إلى آخرَ حتّى يستغيثَ ضاحكًا بصالحٍ لينقذهُ منها. ها هيَ الآنَ تقفُ ويداها على خاصرتيها وعيناها العسليّتانِ تشعّانِ حيويّةً وتحدّيًا وهيَ تزيحُ عنْ جبينها خصلةً منْ شعرها البنّيِّ الطّويلِ.

10



طلبٌ آخر

لمعتْ عينا يسرى وهيَ تنظرُ إلى أصدقاءِ صالحٍ الّذينَ صارتْ تشعرُ أنّهمْ أصبحوا أصدقاءَ لها أيضًا، وقالتْ بصوتٍ أجشَّ: «لا تعرفونَ كمْ أنا ممنونةٌ لكمْ يا جماعةُ، بدونكمْ كانَ هذا سيبقى حلمًا صعبَ المنالِ.»

ثمَّ ابتسمتْ قائلةً: «ولكنْ... ما زالَ عندي طلبٌ واحدٌ منكمْ.»

قالوا معًا ضاحكين: «شبيكِ لبيكِ اطلبي وتمنّي! نحنُ هنا لنحقّقَ كلَّ آمالكِ وأمانيكِ.»

ثمَّ أكملَ أسعدُ بجديّةٍ أكبرَ: «نمزحُ طبعًا. حقًّا... نحنُ مستعدّونَ لتنفيذِ أيِّ طلبٍ إذا كانَ في مقدورنا ذلكَ. قولي لنا ماذا تريدينَ بعدُ؟»

قالتْ يسرى: «كما ذكرتُ لكمْ سابقًا، أريدُ أنْ أفاجئَ والدي وأقنعهُ بموضوعِ الصّيدِ والقاربِ. هلْ تعرفونَ أنّهُ منذُ وقتِ الحادثِ لمْ يقتربْ منَ البحرِ؟ حاولَ معهُ أصدقاؤهُ ولكنّهُ كانَ يرفضُ دائمًا. الموضوعُ مؤلمٌ جدًّا بالنّسبةِ لهُ خاصّةً لأنّهُ منَ الصّعبِ عليهِ أنْ يحضرَ بكرسيّهِ المتحرّكِ إلى كوخِ الصّيّادينَ الّذي كانَ يعتبرهُ بيتهُ الثّانيَ.»

توقّفتْ يسرى قليلاً عنِ الكلامِ ثمَّ قالتْ وهيَ تنظرُ إلى أصدقائها الجددِ: «أتمنّى لوْ أجدُ طريقةً لأحضرهُ إلى هنا حتّى يرى القاربَ بأمِّ عينيهِ، وبعدها سأعرضُ عليهِ فكرةَ أنْ أستلمَ قاربَ الصّيدِ. أعرفُ في قرارةِ نفسي أنّهُ لنْ يمانعَ في أنْ أخرجَ للصّيدِ إذا كانَ

موجودًا قريبًا منّي، يودّعني ويستقبلني. ولكنْ كيفَ نقومُ بكلِّ هذا وهوَ على كرسيٍّ متحرّكٍ ومنَ الصّعبِ أنْ يتحرّكَ الكرسيُّ على الرِّمالِ... هلْ عندَ أحدكمْ أيُّ اقتراحٍ؟»

نظرَ أسعدُ إلى الكوخِ الخشبيِّ بالقربِ من قواربِ الصّيدِ وسألَ بابتسامةٍ واسعةٍ: «منِ المسؤولُ عنْ هذا الكوخِ؟»

قالتْ يسرى: «صديقُ والدي، أبو أحمدَ، هوَ المسؤولُ عنْ هذا الكوخِ.»

قالَ أسعدُ بارتياحٍ: «بسيطةٌ! إذًا كلُّ ما علينا أنْ نفعلهُ هوَ أنْ نفتحَ للعمِّ أبي صالحٍ طريقًا لكرسيّهِ منَ الشّارعِ إلى الكوخِ، ولحسنِ الحظِّ المسافةُ ليستْ كبيرةً... من عشرةٍ إلى اثنيْ عشرَ مترًا تقريبًا. ولكنّنا نحتاجُ أوّلاً أنْ نجدَ منْ يتبرّعُ لنا بالأخشابِ.»

ضحكَ ماهرٌ مستهزئًا: «بس هيك!! بسيطة يا زلمة!»

قالتْ دعدٌ وهيَ تُطَمْئِنُ يسرى: «لا تكنْ سلبيًّا يا ماهرُ، سنحاولُ جهدنا ومنَ المؤكّدِ أنّنا سنجدُ حلاًّ.»

في تلكَ اللّحظةِ حضرَ أبو أحمدَ، وعندما رأى "ستّ الكلّ" بحلّتها الجديدةِ صاحَ قائلاً: «منْ أخذَ قاربَ "ستّ الكلّ" ووضعَ هذا

القاربَ مكانهُ؟ أبو صالحٍ سيفقدُ عقلهُ إذا عرفَ! فهوَ متعلّقٌ جدًّا "بستّ الكلّ".»

ضحكتْ يسرى وقالتْ: «لا تخفْ يا عم أبا أحمدَ، هذا هو قاربُ والدي والشّبابُ هنا، أصدقاءُ صالحٍ، ساعدوني على تصليحهِ وتجديدهِ. الله يخلّيهم لأهلهم.»

دارَ أبو أحمدَ حولَ القاربِ وهوَ يقولُ بتعجّبٍ: «واللهِ أصبحَ كالجديدِ، يا ليتكمْ تساعدوني في تجديدِ قاربي.»

ضحكَ الشَّبابُ وقالوا: «نحنُ مستعدّونَ لذلكَ يا عم أبا أحمدَ ولكنْ نريدُ أنْ نطلبَ منكَ شيئًا.»

استمعَ أبو أحمدَ غيرَ مصدّقٍ بموضوعِ استلامِ يسرى مهمّةَ صيدِ السّمكِ. رفضَ الموضوعَ في البدايةِ رفضًا باتًّا، ولكنْ بعدَ أنْ رأى إصرارَ يسرى وأصدقائها قالَ: «ما زلتُ أذكرُ يا يسرى كيفَ كنتِ تبحرينَ معَ والدكِ، وكيفَ كانَ يتركِكِ أحيانًا تصيدينَ عنهُ... كانَ يقولُ لي دائمًا: صالحٌ غيرُ مهتمٍّ بالصّيدِ ويذهبُ معي مجاملةً أمّا هذهِ الصّغيرةُ، فالبحرُ يسري في عروقها مثلي

تمامًا... آه! كانتْ أيّامًا! قدْ يكونُ هذا هوَ الحلَّ الّذي سيُخرِجُ والدكِ من حزنهِ وقنوطهِ. وأنا يا يسرى سأرافقُ قاربكِ في أوّلِ الأمرِ لأطمئنَّ عليكِ، وسأحاولُ أنْ أقنعَ والدكِ... أعدكِ بذلكَ.»

11



الممرّ

مرَّ أكثرُ منْ أسبوعينِ وأصدقاءُ صالحٍ ما يزالونَ يبحثونَ عنْ طريقةٍ للحصولِ على ألواحِ خشبٍ تصلحُ أنْ تكونَ ممرًّا لكرسيِّ أبي صالحٍ المتحرِّكِ، وأخيرًا وجدوا ضالّتهمْ في ورشةِ بناءٍ فيها كميّةٌ منَ الخشبِ الّذي أصبحَ غيرَ صالحٍ للاستخدامِ في البناءِ. اشتروُا الخشبَ منْ صاحبِ العمارةِ بسعرٍ بخسٍ، ثمَّ أخذوهُ إلى

منجرةٍ حيثُ قاموا بقصِّ الخشبِ إلى ألواحٍ تناسبُ الممرَّ الّذي يحتاجونَ إليهِ.

لم تسعِ الدّنيا يسرى منَ الفرحِ عندما أخبرتها دعدٌ بأنّهمْ حصلوا على الخشبِ، وأنَّ موعدَ تركيبِ الممرِّ سيكونُ في عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ. فقدْ كادتْ أنْ تفقدَ الأملَ في أنْ يجدوا الخشبَ ويبنوا الممرَّ... والآنَ سيكونُ منَ الأسهلِ أنْ تقنعَ والدها بأنْ تستلمَ قاربَ الصّيدِ.

اتّفقَ الأصدقاءُ على اللّقاءِ عندَ كوخِ الصّيّادينَ لتركيبِ الممرِّ، وكانوا قدِ استأجروا شاحنةً صغيرةً لتوصلَ ألواحَ الخشبِ منَ المنجرةِ.

قالَ أسعدُ: «الحمدُ للهِ أنَّ المسافةَ قصيرةٌ منَ الشّارعِ إلى الكوخِ. سيكفينا الخشبُ إنْ شاءَ اللهُ.»

سألتْ يسرى: «ماذا علينا أنْ نفعلَ أوّلاً؟»

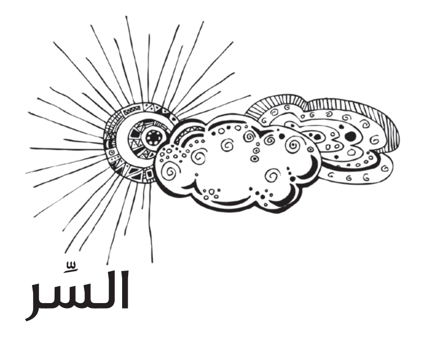
قالَ أبو أحمدَ الّذي نصّبَ نفسهُ مشرفًا على الورشةِ: «يا عمّي... يجبُ أنْ تمهّدوا الطّريقَ أوّلاً، ثمَّ تبلّوا الرّملَ ثمَّ تضعوا قطعَ الخشبِ. آخ... لوْ كانَ عندنا مدحلةٌ لَحُلَّ الإشكالُ... ولكنْ ما

رأيكمْ باستخدامِ هذا البرميلِ القديمِ بدلاً من المدحلةِ؟»
ضحكَ أسعدُ وقالَ: «واللهِ معكَ حقٌّ يا عمّ... يا أبا الأفكارِ!»
ظلَّ صوتُ أبي أحمدَ يعلو بتعليماتِ "معلّمِ بناءٍ" وهوَ قابعٌ في كرسيِّهِ حتّى انتهى الرّفاقُ من ترتيبِ الخشبِ وأصبحَ الممرُّ جاهزًا.
قالَ أبو أحمدَ وهوَ يمسحُ عرقهُ: «يعطيكم ألف عافية يا شباب... كمْ سيفرحُ أبو صالحٍ عندما يحضرُ إلى كوخِ الصّيّادينَ مثلَ أيّامَ زمانٍ. سيجلسُ معي حتّى نصلحَ شباكَ الصّيدِ وسنلعبُ "طاولة" أمامَ الكوخِ.»

خلالَ المدّةِ الّتي كانَ رفاقُ صالحٍ يبحثونَ فيها عنِ الخشبِ، ذهبتْ يسرى إلى كوخِ الصّيّادينَ بصحبةِ جميلٍ، حيثُ أعادتْ رسمَ الكفِّ والعينِ. طلبتْ يسرى منْ جميلٍ وضعَ يدهِ على القاربِ لترسمَ حولها وقالتْ: «غدًا بعدَ أنْ تكبرَ يا جميلُ، سيصبحُ هذا قاربكَ.» ثمَّ رسمتْ عينَ الحسودِ، وأخيرًا أعادتْ كتابةَ اسمِ القاربِ "ستّ الكلّ" فعادَ القاربُ كما كانَ بلْ وأجملَ بدهانهِ الجديدِ.



12



السِّر

حتّى الآنَ لا يعرفُ والدُ يسرى أيَّ شيءٍ عنِ المشروعِ. حافظتْ يسرى على السِّرِّ وأوصتْ جميلاً بألّا يقولَ شيئًا لأنّها تريدُ أنْ تجعلَ من الأمرِ مفاجأةً سارّةً لوالدها.

لمْ يكنْ سهلاً على جميلٍ أنْ يحافظَ على سرٍّ كلَّ هذهِ المدّةِ وظلَّ يسألُ يسرى: «متى المفاجأةُ؟» وأحيانًا ينسى ويسألُ هذا السؤالَ

أمامَ والديهِ حتّى شكّتْ أمُّ صالحٍ في الموضوعِ فسألتْ يسرى مباشرةً: «أشعرُ أنَّ هناكَ ما تخفينَهُ عنّي يا يسرى. ما هيَ هذهِ المفاجأةُ الّتي يتكلّمُ عنها جميلٌ؟ لمنْ تعدّينها؟ ما هيَ؟ أخبريني!»
وخوفًا منْ أنْ تثورَ والدتها وتمنعها منْ تكملةِ المشوارِ الّذي بدأتهُ، وخوفًا -أيضًا- منْ أنْ تأخذَ موقفًا متشدّدًا فتؤثّرَ على والدها؛ قرّرتْ يسرى أنْ تخبرها بكلِّ شيءٍ. بدأتْ بالحديثِ عنْ قاربِ والدها وكيفَ كانَ يحتاجُ إلى صيانةٍ. ركّزتْ في حديثها على القاربِ وعلى عمليّةِ إصلاحهِ وهيَ تقولُ: «تعرفينَ يا أمّي كمْ يحبُّ أبي قاربهُ وكيفَ يرفضُ فكرةَ بيعهِ لأحدٍ.»
قالتْ والدتها: «أعرفُ يا يسرى، هذا القاربُ مثلُ أحدِ أولادهِ.»
استمعتْ والدتها إليها باهتمامٍ ودمعتْ عيناها وهيَ تسمعُ كيفَ ساهمَ أصدقاءُ صالحٍ بترميمِ القاربِ ودهانهِ وظلّتْ تتمتمُ: «واللهِ فيهم خير... فيهم خير.»
ثمَّ قاطعتْ يسرى وهيَ تقولُ بأسىً: «ولكنْ... ما النّفعُ منْ كلِّ هذا التّعبِ؟ سيكونُ القاربُ منظرًا جميلاً فقطْ. منْ سيستخدمهُ؟ والدكِ – وأنتِ أدرى– سجينُ كرسيّهِ المتحرّكِ وصالحٌ...»

وحشرجَ صوتها وهيَ تقولُ اسمه: «صالحٌ اللهُ يرحمهُ... كانَ حلمُ والدكِ أن يعطيَ القاربَ لصالحٍ بعدَ أنْ يتقاعدَ منَ الصّيدِ ثمَّ لجميلٍ عندما يكبرُ، ولكنْ حصلَ الّذي حصلَ.»

سكتتْ برهةً ثمَّ تنهّدتْ وقالتْ مواسيةً نفسها: «استغفرُ اللهَ العظيمَ... لا يجوزُ الاعتراضُ على مشيئةِ الخالقِ.» وهنا وجدتْ يسرى مدخلاً للتكلّمِ عمّا تخطّطُ لهُ.

قالتْ لأمّها: «يا أمّي أتذكرينَ كيفَ كنتُ أخرجُ للصّيدِ معَ والدي في عطلةِ المدرسةِ؟ وكيفَ كنتُ أساعدهُ في كلِّ شيءٍ حتّى إنّهُ كانَ يقولُ إنّني أفضلُ منْ صالحٍ في الصّيدِ؛ لأنَّ صالحًا في الحقيقةِ لمْ يكنْ مهتمًّا بهذهِ المهنةِ.»

ابتسمتْ والدتها وهيَ تتذكّرُ: «نعمْ يا يسرى، كانَ والدكِ يقولُ هذا الكلامَ كلّما عدتمْ منَ الصّيدِ، لوْ كانتْ يسرى ولدًا لكانتْ أفضلَ صيّادٍ.»

قالتْ يسرى بسرعةٍ قبلَ أنْ تفقدَ شجاعتها وتغيّرَ رأيها: «لذلكَ يا أمّي فكّرْت أنْ أستلمَ أنا قاربَ والدي وأخرجَ بهِ إلى الصّيدِ.»

صاحتْ والدةُ يسرى بفزعٍ: «أنتِ! هلْ جننتِ؟ منْ سمعَ بفتاةٍ

صيّادةٍ في غزّةَ؟ ماذا سيقولُ النّاسُ عنّا؟»
قالتْ يسرى بتحدٍّ: «ما العيبُ؟! ألا تسوقُ المرأةُ السّيّارةَ في غزّةَ، والطّائرةَ والقاربَ في بقيّةِ أنحاءِ العالمِ؟ أنا لنْ أفعلَ ما يعيبُ، بلْ سأخرجُ للصّيدِ معَ العمِّ أبي أحمدَ وأصدقاءِ والدي وأعودُ إلى البيتِ ببعضِ المالِ والسّمكِ... أليسَ هذا أفضلَ منْ أنْ ننتظرَ المعوناتِ منَ الغيرِ؟ أليسَ هذا أفضلَ منْ أنْ نسمعَ كلمةً أوْ كلمتينِ منْ جيراننا عندما نحتاجُ إلى بعضِ المعونةِ منهمْ؟»
بكتْ يسرى بحرقةٍ وهيَ تكملُ حديثها: «لا أريدُ أنْ أوضعَ في موقفٍ أحتاجُ فيهِ أنْ أطلبَ منْ جارتنا أمِّ حافظٍ القليلَ منَ السّكّرِ أوْ بعضًا منَ الشّايِ، فقدْ صارتْ تعاملنا وكأنّنا شحّاذونَ، وتنظرُ إلينا باستعلاءٍ.»
استمرّتْ يسرى في الأخذِ والرّدِ معَ والدتها، تارةً تطمئنها وتارةً تحمّسها وتخفّفُ منْ مخاوفها. وأخيرًا قالتْ والدتها: «لا تتعبي نفسكِ... والدكِ لنْ يوافقَ أبدًا!»
قالتْ يسرى: «اتركي والدي لي يا أمّي، ولكنْ أرجو منكِ أنْ تسانديني عندما أفتحُ الموضوعَ معهُ.»

13



اليومُ المشؤوم

في تلكَ اللّيلةِ عادَ أسعدُ وسهادُ إلى البيتِ وهما يشعرانِ بالسّعادةِ والرّضى لأنّهما تمكنّا منْ مساعدةِ عائلةِ صديقهما صالحٍ.

جلسا معَ والديهما على مائدةِ العشاءِ وأخبراهما تفاصيلَ ما جرى معهما في ذلكِ اليومِ عندَ كوخِ الصيّادينَ، ولكنّهما لمْ يحدّثاهما عنْ عزمِ يسرى على أنْ تصبحَ صيّادةً؛ لأنَها طلبتْ منهما أنْ يبقيا الأمرَ سرًّا حتّى تفاتحَ والدها بالموضوعِ. دمعتْ

عينا والدتهما وهيَ تقشّرُ تفّاحةً وتقسّمها إلى أرباعٍ وتقولُ: «باركَ اللهُ فيكم يا شبابُ. اللهُ يكونُ بعونِ عائلةِ أبي صالحٍ... منْ مصيبةٍ إلى أخرى... ما فعلتموهُ اليومَ سوفَ يسهّلُ عليهِ حياتهُ بعضَ الشّيءِ.»

في تلك اللّيلةِ، بعدَ أنْ نامَ الجميعُ تقلّبَ أسعدُ في سريرهِ ووجهُ صالحٍ لا يفارقهُ... تذكّرَ ذلكَ اليومَ المشؤومَ عندما كانَ صالحٌ والشّلّةُ مجتمعينَ في بيتِ ماهرٍ يتحدّثونَ عنْ حفلةٍ لموسيقى "الرّاب" ستقامُ في غزّةَ حيثُ ستشاركُ فِرَقٌ عالميّةٌ تساندُ القضيّةَ الفلسطينيّةَ... وكانَ الحديثُ عن مشاركةِ بعضِ الفِرَقِ المحلّيّةِ في الحفلِ، ولكنَّ التّخوّفَ كانَ منْ أنْ تمنعَ الحكومةُ ذلكَ، إذْ أصبحَ منَ الضّروريِّ الحصولُ على إذنٍ خاصٍّ لتقديمِ أيِّ حفلٍ يحتوي على أغاني "راب" لفِرَقٍ محلّيّةٍ.

كانَ أسعدُ وصالحٌ وماهرٌ يجتمعونَ أسبوعيًّا للاستماعِ إلى أغاني "الرّاب" على "اليوتيوب"، أو للتّواصلِ معَ بعضِ مغنّي "الرّاب" في الضفّةِ الغربيّةِ والعالمِ العربيِّ. وفي بعضِ الأحيانِ كانوا

يؤلّفونَ كلماتٍ لأغانٍ جديدةٍ، ويتمرّنونَ على إلقائها باستخدامِ برامجِ حاسوبٍ خاصّةٍ تساعدهمْ على ضبطِ الإيقاعِ. كانتْ سهادُ ودعدٌ تشاركانِ في كتابةِ كلماتِ الأغاني وفي الغناءِ معَ باقي أفرادِ الفرقةِ كأصواتٍ نسائيّةٍ.

في ذلكَ اليومِ طالتِ الجلسةُ وشعرَ الجميعُ بالجوعِ؛ فتطوّعَ صالحٌ بالذّهابِ إلى السّوقِ المجاورِ لإحضارِ "سندويشات فلافل" للجميعِ.

قالَ وهوَ يستعدُّ للخروجِ: «السندويشات عليّ، ولكنْ أريدكمْ أنْ تتمرّنوا على كلماتِ الأغنيةِ حتّى أعودَ... أنا متفائلٌ جدًّا وأشعرُ أنَّ هذهِ الأغنيةَ ستصبحُ رائجةً جدًّا.»

ولكنْ بعدَ أنْ خرجَ صالحٌ منَ البيتِ بنصفِ ساعةٍ تقريبًا اهتزَّ البيتُ من وقْعِ انفجارٍ شديدٍ.

صاحَ الجميعُ بهلعٍ وكلٌّ واحدٍ منهمْ يحاولُ أنْ يحزرَ سببَ ومكانَ هذا الانفجارِ. اندفعوا بتلقائيّةٍ إلى الشّارعِ ليعرفوا ما الّذي حصلَ.

صاحَ أحدُ المارّةِ مؤكّدًا: «إنّهُ صاروخٌ إسرائيليٌّ... رأيتهُ وهوَ

يسقطُ. لا بدَّ أنّهُ استهدفَ سيّارةَ أحدِ النّشطاءِ. الله يستر... في كلِّ مرّةٍ يرمون بصواريخهمْ هذهِ يحصدونَ عددًا منَ الأرواحِ... يقتلوننا على الماشي وكأنّنا ذبابٌ.»

أسرعَ شخصٌ آخرُ منْ جهةِ الانفجارِ وهوَ يصيحُ بغضبٍ: «الله يجازيهم! ماتَ كلُّ منْ في السّيّارةِ وكذلكَ عشرةُ أشخاصٍ منَ المارّةِ.»

تذكّر أسعدُ صديقهُ صالحًا فصاحَ بهلعٍ وهوَ يركضُ باتّجاهِ الانفجارِ: «صالح ! صالح!»

لمْ يستطعْ أحدٌ أنْ يوقفهُ، وهناكَ في وسطِ السّوقِ المكتظِّ بالمارّةِ رأى منظرًا مروّعًا... سيّارةً محترقةً تمامًا وأشلاءَ منَ النّاسِ هنا وهناكَ. دخانٌ وغبارٌ ونّاسٌ يصرخونَ وهمْ يبحثونَ عنْ ناجينَ أوْ أحبّاءَ لهمْ. وقفَ أسعدُ مشدوهًا ينظرُ حولهُ.

فجأةً وقعَ نظرهُ على يدٍ وبقربها كيسٌ منْ "سندويتشاتِ الفلافلِ"... فسقطَ مغشيًّا عليهِ.

سقطتْ دمعةٌ من عينيهِ وهوَ يتذكّرُ صديقَ طفولتهِ... آهٍ كمْ يتمنّى لوْ يستطيعُ أنْ يمحوَ هذهِ الصّورةَ منْ ذاكرتهِ. مسحَ عينيهِ وشربَ

القليلَ منَ الماءِ ثمَّ عاد إلى فراشهِ محاولاً النّومَ.

فكّرَ بقاربِ يسرى وبالخطّةِ لاصطحابِ أبي صالحٍ إلى البحرِ ليرى "ستّ الكلّ"، ويجلسَ مع صديقهِ أبي أحمدَ أمامَ شاطئِ البحرِ مثلَ أيّامِ زمانٍ... ثمَّ انتقلَ بتفكيرهِ إلى يسرى وتذكّرَ مدى حيويّتها. وابتسمَ وهو يتذكّرُ محاولتها المستمرّةَ للسّيطرةِ على خصلةِ الشّعرِ المتمرّدةِ فوقَ جبينها.

14



المفاجأة

كلُّ شيءٍ جاهزٌ الآنَ... بقيَ على يسرى أنْ تفتحَ الموضوعَ معَ والدها حتّى تبدأَ بتنفيذِ الخطّةِ الّتي رسمتها و استحوذتْ على كلِّ تفكيرها. كانتْ قدِ اتّفقتْ معَ أصدقاءِ صالحٍ على حضورهمْ إلى البيتِ باكرًا لاصطحابِ والدها إلى شاطئِ البحرِ، كما تمَّ الاتّفاقُ معَ أبي أحمدَ ليحضرَ بسيّارتهِ القديمةِ ويساعدهمْ في نقلهِ معَ كرسيّهِ المتحرّكِ.

حضرَ الشّبابُ في الموعدِ المحدّدِ وبعدَ شربِ الشّايِ قالَ أسعدُ:
«عمّي أبا صالحٍ، عندنا مفاجأةٌ لكَ.»
قالَ أبو صالحٍ وهوَ يبعدُ بيدهِ ذبابةً تحومُ حولَ وجههِ: «خير... الله ينجّينا من المفاجآت.»
ضحكَ ماهرٌ وقالَ: «يا عمّي، نحنُ اليومَ نتحدّثُ عنْ مفاجأةٍ حلوةٍ... سنأخذكَ معنا في مشوارٍ.»
تنهّدَ أبو صالحٍ بحزنٍ وقالَ: «يا حسرة ... انتهى وقتُ المشاويرِ بالنّسبةِ لي... فأنا إمّا أنْ أخرجَ إلى الحاكورةِ أوْ إلى زيارةِ الطّبيبِ. الله يرضى عن صديقي أبي أحمدَ. عندما أحتاجُ إليهِ يحضرُ بسيّارتهِ ليأخذني إلى المستوصفِ.»
صاحَ الجميعُ ضاحكينَ: «وصديقكَ أبو أحمدَ ينتظركَ في الخارجِ وسيحضرُ معنا في هذا المشوارِ.»
قالتْ يسرى وهيَ تمسحُ على رأسهِ بحنانٍ: «يللا يابا... روح مع الشّباب. أتعبوا أنفسهمْ وحضروا خصّيصًا لأجلكَ.»
أضافتْ هالةُ صوتها إلى صوتِ الجميعِ قائلةً: «نعمْ يا أبا صالحٍ... لا تفشّلِ الشّبابَ، اذهبْ معهمْ ومعَ أبي أحمدَ صديقكَ،

فـهوَ ينتظركَ في الـخـارجِ منذُ مدّةٍ.»

لمْ يتوقّفْ أبو صالحٍ عنِ التّذمّرِ طوالَ الطّريقِ. ولكنْ عندما توقّفتِ السّيّارةُ أمامَ الشّاطئِ، سكتَ فجأةً وأخذَ نفسًا عميقًا منْ هواءِ البحرِ... كأنّهُ يريدُ أنْ يملأَ رئتيهِ بنسماتهِ بعدَ طولِ غيابٍ، ثمَّ سرحَ بنظرهِ إلى الأفقِ البعيدِ وقالَ بصوتٍ خافتٍ: «كمِ اشتقتُ إليكَ يا بحرُ!» ... وانـهمرتْ دموعهُ.

بعدَ لحظاتٍ تمالكَ أبو صالحٍ نفسهُ وقالَ: «هلْ هذهِ هيَ المفاجأةُ؟»
أسرعَ الشّبابُ وفتحوا صندوقَ السّيّارةِ وأخرجوا منها كرسيّهُ المتحرّكَ وقالوا لهُ: «لا... لا... هناكَ المزيدُ.»

ساعدَ الشّبابُ أبا صالحٍ على الجلوسِ في كرسيّهِ، وجرّوا الكرسيَّ حتّى وصلوا عندَ الممرِّ الخشبيِّ فمشوْا عليهِ حتّى وصلوا إلى كوخِ الصّيّادينَ وأجلسوهُ تحتَ المظلّةِ الّتي حضّرها لهُ أبو أحمدَ. نظرَ أبو صالحٍ حولهُ غيرَ مصدّقٍ أنّهُ تمكّنَ منْ أنْ يصلَ إلى الكوخِ بهذهِ السّهولةِ. بدا عليهِ التّأثّرُ العميقُ وقدْ خانتهُ الكلماتُ ليعبّرَ عنْ سعادتهِ.

أسرعتْ يسرى إلى والدها وحضنتهُ ثمَّ طبعتْ قبلةً على جبينهِ وقالتْ لهُ بكلِّ حنانٍ: «هنا مكانكَ يابا على شاطىءِ البحرِ معْ أصدقائكَ.»

قالَ أبو صالحٍ : «باركَ اللهُ فيكِ يا يسرى.»

ثمَّ نظرَ إلى الشّبابِ المتحلّقينَ حولهُ وقالَ: «باركَ اللهُ فيكمْ يا أحبّائي.»

أزاحَ نظرهُ عنِ الأفقِ وبحثَ عنْ قاربهِ، وعندما رأى مكانهُ قاربًا جديدًا يلمعُ صاحَ بهلعٍ قائلاً: «أينَ "ستّ الكلّ"؟ منْ أخذها؟»

قالَ أبو أحمدَ ضاحكًا: «اهدأْ يا زلمة! هذا القاربُ الجديدُ الّذي أمامكَ هو قاربكَ "ستّ الكلّ". أصدقاءُ ابنكَ صالحٍ – باركَ اللهُ فيهمْ – أحبّوا أنْ يفاجئوكَ فرمّموا القاربَ ودهنوهُ منْ جديدٍ.»

اغرورقتْ عينا أبي صالحٍ وقالَ: «هذا كثيرٌ... واللهِ كثيرٌ! شكرًا لكمْ... شكرًا لكمْ.»

نكزَ أبو أحمدَ صديقهُ ممازحًا وقالَ لهُ: «يكفيكَ كلامًا يا صديقي، اشربْ كوبَ الشّاي وساعدني في ترميمِ هذهِ الشّبكةِ.»

وما هيَ إلاّ لحظاتٌ حتّى انتشرَ الخبرُ عنْ عودةِ أبي صالحٍ إلى شاطئِ البحرِ؛ فحضرَ الصّيّادونَ ليسلّموا عليهِ ويتبادلوا معهُ الأحاديثَ والقصصَ.

15



ما العيبُ؟!

يومها لمْ تستطعْ يسرى أنْ تخبرَ والدها عنْ خطّتها. شعرتْ أنَّ مفاجأةً واحدةً في اليومِ تكفيهِ، وقرّرتْ أنْ تخبرهُ في اليومِ التّالي.

عندَ عودتهمْ إلى البيتِ كانتْ أمُّ صالحٍ بانتظارهمْ على أحرَّ منَ الجمرِ، وعندما نظرتْ إلى زوجها وأبو أحمدَ يساعدهُ على النّزولِ منَ السّيّارةِ عرفتْ أنَّ شيئًا ما تغيّرَ. شعرتْ بحيويّةٍ فيهِ لمْ ترها

منذُ زمنٍ، شعرتْ وكأنَّ زوجها كانَ مسافرًا إلى مكانٍ بعيدٍ وعادَ إليها. جلستْ وسطَ عائلتها تستمعُ إلى حديثِ كلٍّ منهمْ وهمْ يصفونَ ما حدثَ في ذلكَ اليومِ المميّزِ.

اتّفقَ أبو أحمدَ معَ صديقهِ أبي صالحٍ على أنْ يمرَّ عليهِ مرّتينِ في الأسبوعِ ليأخذهُ إلى البحرِ.

وبعدَ يومينِ وبينما أبو صالحٍ ينتظرُ بفارغِ الصّبرِ قدومَ أبي أحمدَ لاصطحابهِ إلى كوخِ الصّيّادينَ. جلستْ يسرى بقربهِ وأمسكتْ يدهُ وربّتتْ عليها، ثمَّ وضعتها على خدّها... شعرتْ كيفَ أصبحتْ يداهُ أقلَّ خشونةً منْ قبلُ.

قالتْ لهُ: «أتذكرُ يابا كيفَ كنتُ أرافقكَ دائمًا في أيّامِ العطلِ إلى الصّيدِ؟»

قهقهَ أبو صالحٍ قائلاً: «نعمْ يا يسرى... أذكرُ تمامًا. غيرُ معقولٍ أنْ أنسى. كانتْ أحلى أيّامٍ، وكنتِ تحبّينَ الصّيدَ، وتعرفينَ تمامًا ما عليكِ عملهُ بعكسِ المرحومِ صالحٍ الّذي كانَ عقلهُ دائمًا في مكانٍ آخرَ.»

قالتْ يسرى: «نعمْ يابا، علّمتني كيفَ أصيدُ، وأصبحتُ مثلكَ أحبُّ

البحرَ والصّيدَ... وهذا موضوعُ حديثي معكَ اليومَ.»

وأسرعتْ يسرى في حديثها حتّى لا تفقدَ شجاعتها وأخبرتْ والدها بفكرتها.

استمعَ الوالدُ مشدوهًا إلى كلامِ يسرى ثمَّ انفجرَ غاضبًا : «ما هذا الكلامُ السّخيفُ الّذي تقولينهُ؟ أنا أتركُ ابنتي تصيدُ بدلاً عنّي؟ ماذا سيقولُ النّاسُ عنّي؟ عيب! والله عيب!»

صاحتْ يسرى بعصبيّةٍ:

«هلِ العيبُ في أنْ أعملَ بمهنةِ أبي لأساعدَ العائلةَ أمِ العيبُ في أنْ نمدَّ يدنا للنّاسِ؟» علتْ أصواتهما وهما يتناقشانِ في الموضوعِ، ويسرى تصرُّ على موقفها، وأمُّ صالحٍ تحاولُ جاهدةً أنْ تهدّئَ الأمرَ، ولكنّها تعرفُ أنَّ ابنتها يسرى عنيدةٌ تمامًا مثلَ والدها.

تابعتْ يسرى بعينٍ دامعةٍ وبصوتٍ دافيء: "قلْ لي يابا. قلْ لي. أنتَ أبي وتعرفني وتثقُ بي وتعرفُ مقدرتي. لماذا لا تسمحُ لي بأنْ أساعدَ عائلتي؟ إذا أنتَ ساندتني ووقفتَ معي لنْ يستطيعَ أحدٌ أنْ يتكلّمَ عنّي،أعرفُ جيّدًا منْ أنا! أنا يسرى ابنةُ أبي صالحٍ الصّيّادِ وأنا فخورةٌ بذلكَ."

دمعتْ عينا أبي صالحٍ وهدأَ تمامًا ثمَّ قالَ لها: «أعرفُ يا يسرى منْ أنتِ يا عزيزتي وأعرفُ مقدرتكِ، ولكنْ أعطيني مهلةً لأفكّرَ في الموضوعِ ثمَّ أخبركِ بقراري.»

بعدَ أسبوعٍ فتحتْ يسرى الموضوعَ معَ والدها مرّةً ثانيةً، وتفاجأتْ عندما قالَ لها: «لقدْ فكّرتُ طويلاً بما قلتِ يا يسرى، وتكلّمتُ معَ أبي أحمدَ الّذي أقنعني بإعطائكِ فرصةً لتثبتي جديّتكِ فيما تطلبينَ، ووعدني أنْ يرافقكِ في البدايةِ حتّى يتأكّدَ أنْ لا يصيبكِ أيُّ أذىً. أعرفُ أنّنا الآنَ على أبوابِ نهايةِ العامِ الدّراسيِّ. أريدكِ أنْ تركّزي على دروسكِ، وسأسمحُ لكِ بالإبحارِ بدايةَ العطلةِ الصّيفيّةِ إنْ شاءَ اللهُ. ولكنْ على شرطٍ واحدٍ... أنْ تتمرّني معَ أبي أحمدَ وعندما يقولُ لي إنّكِ مستعدّةٌ للإبحارِ والصّيدِ سأسمحُ لكِ بذلكَ.»

قفزتْ يسرى فرحةً وضمّتْ والدها وهيَ تقولُ: «سأجعلكَ تفخرُ بي يابا... سنرجعُ مثلَ أيّامِ زمانٍ.»

16



اللّيلُ الطّويلُ

وأخيرًا جاءَ اليومُ المنشودُ. لمْ تنمْ يسرى طوالَ تلكَ اللّيلةِ، ظلّتْ تتقلّبُ في سريرها. كانتْ تشعرُ بالقلقِ والخوفِ وعدمِ الثّقةِ بنفسها. ربّما نسيتْ كيفَ تصطادُ... ماذا لوِ انقلبَ القاربُ؟ ماذا لوْ ضاعتْ في البحرِ؟ ماذا لوِ اعترضتها السّفنُ الحربيّةُ الإسرائيليّةُ؟

كلُّ الاحتمالاتِ السَّيئةِ دارتْ في ذهنها. وأخيرًا تمالكتْ نفسها وشحنتْ نفسها بالتّحدّي. لنْ تستسلمَ الآنَ بلْ ستمضي في خططها وإنْ شاءَ اللهُ سيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يرامُ.

وأخيرًا غلبها النّعاسُ فنامتْ وهيَ تفكّرُ بعددِ السّمكاتِ الّتي ستتمكّنُ من اصطيادها في أوّلِ يومٍ لها كصيّادةٍ في بحرِ غزّةَ. استيقظتْ يسرى باكرًا. صلّتْ صلاةَ الفجرِ وشعرتْ بالرّاحةِ والطّمأنينةِ، ثمَّ لبستْ ملابسَ الرّياضةِ وبحثتْ عنْ قبّعةٍ لتلبسها حتّى تقيها حرارةَ الشّمسِ، وأخيرًا وجدتْ قبّعةً كانَ صالحٌ يلبسها دائمًا ويحبّها. تحسّستها بيديها وهيَ تفكّرُ بصالحٍ، ثمَّ قالتْ لنفسها: «أفضلُ ما سيقيني منْ حرارةِ الشّمسِ قبّعةُ صالحٍ، وبها سأشعرُ بأنّهُ معي، يحميني ويساعدني.»

بدأتِ الشّمسُ تصعدُ في السّماءِ وتبعثُ الدّفءَ بأشعّتها. جلستْ يسرى لتناولِ طعامِ الإفطارِ معَ والدتها ووالدها. أكلتْ لفّةَ خبزٍ بالزّعترِ والزّيتِ وشربتْ كوبًا منَ الشّاي بالنّعناعِ، وهيَ تحاولُ

أنْ تتفادى نظراتِ والدتها المليئةَ بالقلقِ والخوفِ عليها.

قال والدها: «أفضلُ وقتٍ للصّيدِ يا يسرى ساعاتُ الصّباحِ الباكرِ. تبحرينَ لمدّةِ ساعتينِ بعدَ الفجرِ، وساعتينِ في المساءِ. هلْ أنتِ مستعدّةٌ يا ابنتي؟ يمكنكِ أنْ تغيّري رأيكِ إذا أردتِ.»

هزّتْ يسرى رأسها وقالتْ: «نعمْ يابا، أنا مستعدّةٌ. ها قدْ أتى أبو أحمدَ ليأخذنا معهُ إلى الشّاطئِ. سمعتُ صوتَ سيّارتهِ للتّوِّ.»

ضمّتْ والدتها وطبعتْ قبلةً على جبينها وهيَ تقولُ: «يمّا لا تقلقي، ابنتكِ "قدّها وقدود".» ثمَّ جرّتْ كرسيَّ والدها إلى خارجِ البيتِ.

17



الرّحلةُ الأولى

كانتْ يسرى تعرفُ ما عليها أنْ تفعلهُ. فبعدَ أنْ وضعتِ الشّبكةَ في القاربِ الصّغيرِ والزّوّادةَ الّتي أصرّتْ والدتها أنْ تحملها معها. جرّتِ القاربَ إلى حافّةِ الشّاطىءِ وبدفعةٍ أخيرةٍ بمساعدةِ أبي أحمدَ أصبحَ القاربُ في الماءِ وبدأتْ تجدفُ.

صاحَ والدها منَ الشّاطئِ وفي صوتهِ حشرجةٌ: «الله معك يا ابنتي، الله معك يا ستّ الكلّ.»

تمتمَ أبو أحمدَ بانفعالٍ: «تذكّري ما علّمتكِ يا يسرى ولا تبتعدي أكثرَ منْ ثلاثةِ أميالٍ في البحرِ... وإلاّ.»

وقفتْ يسرى وسطَ القاربِ الصّغيرِ وتوازنتْ، ثم أخذت تجدفُ بالمجدافِ الطّويلِ مرّةً على جهةِ اليمينِ ومرّةً على جهةِ اليسارِ. لقد تمرّنتْ كثيرًا على التّوازنِ معَ أبي أحمدَ وعلى حركةِ المجدافِ، وشعرتْ بقوّةِ عضلاتها تزدادُ يومًا بعدَ يومٍ بعدَ انقطاعها الطّويلِ عنِ البحرِ.

نظرتْ حولها ورأتِ العديدَ منْ قواربِ الصّيدِ تبحرُ جميعُها نحوَ الأفقِ... متّجهةً إلى أبعدِ نقطةٍ تسمحُ بها البحريّةُ الإسرائيليّةُ حيثُ فرصةُ اصطيادِ الأسماكِ أكبرُ.

كانَ هناكَ صيّادونَ بعمرِ والدها وكثيرٌ منَ الشّبابِ الّذينَ يقاربونها في العمرِ، ولكنّها كانتِ الفتاةَ الصّيّادةَ الوحيدةَ في البحرِ.

امتدَّ الأفقُ أمامها إلى ما لا نهايةَ. نسيتْ يسرى أنَّ العالمَ كبيرٌ إلى هذا الحدِّ. ابتعدتْ أكثرَ وأكثرَ عنِ الشّاطئِ وشكرتْ ربّها

على أنَّ البحرَ يومها كانَ هادئًا. ومنْ بعيدٍ... بعيدٍ، رأتْ خيالاتِ السّفنِ البحريّةِ الإسرائيليّةِ تتربّصُ بقواربِ الصّيدِ كوحشٍ متأهّبٍ يستعدُّ للانقضاضِ عليها. أشاحتْ بوجهها عنها، وركّزتْ نظرها على الأفقِ البعيدِ وهيَ تتخيّلُ بلدانًا تتمنّى لو كانَ بإمكانها أنْ تزورها.

الهدوءُ يغلّفُ المكانَ... البحرُ منْ حولها وصوتُ أمواجٍ صغيرةٍ ترتطمُ بالقاربِ بنغمةٍ رتيبةٍ. نسيمُ البحرِ يلطمُ وجهها بخفّةٍ وكأنّهُ يلاعبها ويشدُّ شعرها إلى الوراءِ. أغمضتْ عينيها ثمَّ أخذتْ نفسًا عميقًا، وشعرتْ وكأنَّ عندها المقدرةَ على أنْ تحلّقَ وتطيرَ معَ نسماتِ البحرِ بعيدًا في الفضاءِ، تمامًا مثلَ طيورِ النّورسِ الّتي تراها أمامها... لا يهمُّ إلى أينَ... المهمُّ أنْ تتحرّرَ منْ كثرةِ القيودِ والحواجزِ في حياتها.

نظرتْ إلى البوصلةِ وقرّرتْ أنْ تجرّبَ حظّها في الصّيدِ في تلكَ البقعةِ منَ البحرِ. لنْ تبتعدَ كثيرًا عنِ الشّاطئِ هذهِ المرّةَ، فهيَ

تشعرُ بالرّاحةِ والطّمأنينةِ لأنّها ما تزالُ تراهُ عنْ بعدٍ.
رمتِ الشّباكَ في البحرِ كما كانَ والدها يفعلُ. كلُّ ما عليها أنْ تفعلهُ الآنَ هوَ الانتظارُ... شعرتْ بالجوعِ ففتحتِ الزّوّادةَ الّتي حضّرتها لها والدتها فأكلتْ وشربتْ منها. ثمَّ قضتْ زهاءَ السّاعتينِ وهيَ تتفحّصُ الشّباكَ منْ وقتٍ لآخرَ. وأخيرًا حانَ موعدُ العودةِ. فحصتِ الشّباكَ للمرّةِ الأخيرةِ وتمنّتْ لوْ أنّها نجحتْ في اصطيادِ ما يكفي منَ السّمكِ.

كانتْ يسرى تعرفُ أنَّ السّمكَ قليلٌ في المناطقِ القريبةِ منَ الشّاطئِ، وأنَّ إسرائيلَ عبرَ السّنينِ عاقبتْ أهاليَ غزّةَ بتحديدِ المناطقِ البحريّةِ الّتي يسمحُ لهمْ بالصّيدِ فيها.
كانَ الاتّفاقُ في "معاهدةِ أوسلو" ينصُّ على حقِّ الغزّيّينَ بالصّيدِ حتّى مسافةِ خمسةٍ وعشرينَ ميلاً منْ شاطئِ غزّةَ، ثمَّ قُلّلتِ المسافةُ لتصبحَ اثنيْ عشرَ ميلاً، ثمَّ أصبحتْ خمسةَ أميالٍ، والآنَ ثلاثةَ أميالٍ فقط.
أكثرُ ما كانَ يغضبُ صيّادي غزّةَ أنَّ سفنَ الصّيدِ الإسرائيليّةَ

الكبيرةَ ترافقها السّفنُ الحربيّةُ لحمايتها تأتي لتصيدَ في مياهِ غزّةَ الإقليميّةِ تحتَ سمعِ وأنظارِ المجتمعِ الدّوليِّ بينما أهالي غزّةَ الّذين يعتمدونَ على صيدِ السّمكِ في طعامهمُ اليوميِّ واقتصادهمُ الوطنيِّ محرومونَ من حقّهمْ في الصّيدِ إلّا في مناطقَ محدودةٍ جدًّا أصبحتْ شبهَ خاليةٍ منَ الأسماكِ.

نظرتْ يسرى إلى أشباحِ السّفنِ الإسرائيليّةِ وصرختْ بأعلى صوتها: «كفى... كفى اتركونا نعيش.»

شعورٌ جميلٌ راودها فهيَ تستطيعُ أنْ تصرخَ بحرّيّةٍ دونَ أنْ يسمعها أحدٌ.

نظرتْ حولها ثمَّ عادتْ تصرخُ بأعلى صوتها وبكلِّ ما أوتيتْ منْ قوّةٍ... لمْ تصرخْ طلبًا للمساعدةِ منْ أحدٍ، ولكنّها أحبّتْ أنْ تعبّرَ ولوْ لمرّةٍ عمّا تشعرُ بهِ منْ كبتٍ وغضبٍ وحزنٍ .

كانَ الجميعُ بانتظارِ القاربِ... أوّلهمْ أبو صالحٍ وأمُّ صالحٍ -الّتي حضرتْ معَ جميلٍ- وأبو أحمدَ وأصدقاءُ صالحٍ وكثيرٌ منَ الصّيّادينَ الّذينَ سمعوا بيسرى، "أوّلِ صيّادةٍ في غزّةَ" ، وجاءوا ليروْا بأعينهمْ صحّةَ الخبرِ.

لوّحَ الجميعُ ليسرى وهي تجدفُ باتّجاهِ الشّاطئِ.

أسرعَ أسعدُ وماهرٌ وأبو أحمدَ إلى الماءِ وشدّوا القاربَ إلى الشّاطئِ.

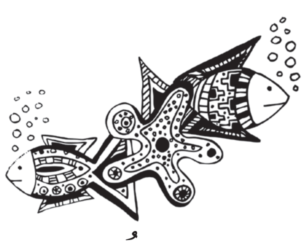
نزلتْ يسرى منَ القاربِ وقالتْ للشّبابِ ضاحكةً: «هيّا ساعدوني على سحبِ الشّباكِ؛ لنرى ما تمكّنتُ منْ صيدهِ اليومَ... لمْ أبتعدْ كثيرًا عنِ الشّاطئِ لأنّهُ أوّلُ يومٍ لي.»

بدأَ الشّبابُ بسحبِ الشّباكِ ثمَّ لفّها حتّى لا تتعقّدَ، وجميلٌ يشدُّ معهم بكلِّ همّةٍ وعزمٍ.

وأخيرًا ظهرَ السّمكُ وهوَ يتقافزُ في الشّبكةِ... لمْ يكنْ هناكَ كميّةٌ كبيرةٌ... فقطْ بعضُ الأسماكِ الصّغيرةِ والسّلطعوناتِ، ولكنّها كانتْ كافيةً لأنْ يقوموا بشيّها على الشّاطئِ ويتشاركوا بأكلها معَ أرغفةٍ منَ الخبزِ السّاخنِ "الشّراك"، وصحنٍ منَ السّلطةِ الغزّاويّةِ الحارّةِ أحضرتها معها أمُّ صالحٍ منَ البيتِ.

رائحةُ شيِّ السّمكِ ملأتِ المكانَ، وقدْ بدأتِ الشّمسُ تغيبُ في الأفقِ. تحلّقَ الجميعُ حولَ يسرى، وبدأتْ بوصفِ تجربتها في الصّيدِ أوّلَ يومٍ، وكلٌّ منْ حولها ينصتونَ إليها باهتمامٍ.

18



خطبةُ فداء

صارَ منظرُ يسرى مألوفًا على الشّاطىءِ. تخرجُ معَ والدها وأبي أحمدَ إلى الصّيدِ كلَّ صباحٍ وتعودُ معهما إلى البيتِ في المساءِ. وككلِّ الصّيّادينَ كانَ صيدها يتفاوتُ منْ يومٍ لآخرَ، ففي بعضِ الأيّامِ يكونُ وفيرًا وفي أيّامٍ أخرى لا يكادُ يكفي أنْ يكونَ وجبةً مشبعةً للعائلةِ.

بدأتْ يسرى تتشجّعُ أكثرَ وأكثرَ وتبتعدُ عنِ الشّاطىءِ إلى أبعدِ منطقةٍ مسموحٍ بها محاولةً أنْ لا تتعدّى الأميالَ البحريّةَ الثّلاثةَ الّتي تسمحُ بها البحريّةُ الإسرائيليّةُ.

تذكّرتْ جيّدًا أوّلَ مرّةٍ حصلتْ فيها على صيدٍ وفيرٍ. يومها تحسّستِ الشّباكَ أكثرَ منْ مرّةٍ، فقدْ شعرتْ أنَّ في البحرِ حركةً مختلفةً فتأمّلتْ خيرًا.

عندما وصلتِ الشّاطىءَ وتمَّ سحبُ الشّباكِ، كانتِ المفاجأةُ الكبرى، وهيَ أنَّ شباكها كانتْ مليئةً بأسماكِ الوطواطِ، وهيَ أسماكٌ كبيرةٌ فيها لحمٌ وفيرٌ، وتباعُ بسعرٍ جيّدٍ في سوقِ السّمكِ.

عمّتِ الفرحةُ الصّيّادينَ بسببِ هذهِ الهديّةِ غيرِ المتوقّعةِ منَ البحرِ، وتأمّلوا أنْ تعودَ شباكهمْ مليئةً بأسماكِ الوطواطِ أيضًا.

في ذلكَ اليومِ عندما عادَ أبو صالحٍ منْ سوقِ السّمكِ كانتِ الفرحةُ تملأُ قلبهُ... فبفضلِ يسرى تمكّن منْ جمعِ مبلغٍ يكفي لدفعِ إيجارِ البيتِ وشراءِ احتياجاتِ عائلتهِ.

بعدَ مدّةٍ تعوّدَ أهلُ غزّةَ على يسرى الصّيّادةِ. بعضـهمْ تعاطفَ معها ومعَ عائلتها وتفهّمَ حاجتها لمساعدةِ أهلها. ولكنَّ قسمًا آخرَ منهمْ اعتبرَ أنَّ ما تقومُ بهِ غيرُ مقبولٍ بتاتًا، ومخالفٌ للعاداتِ والتّقاليدِ ومخالفٌ للدّينِ أيضًا... فالدّينُ نهى عنِ التّشبّهِ بالرّجالِ وها هيَ صيّادةٌ مثلَ الرّجالِ... أليسَ منَ الأفضلِ أنْ تبقى في البيتِ ترعى شؤونهُ وتتركَ الصّيدَ للرّجالِ؟

تمتمَ بعضـهمْ بغضبٍ: «كيفَ يقبلُ والدها أنْ تسبحَ في البحرِ؟ أليسَ هذا عيبًا؟» فيسرى كانتْ ككلِّ الصّيّادينَ تحتاجُ إلى الغوصِ لتفكيكِ الشّباكِ وترتيبها أحيانًا، وكانتْ تستطيعُ أنْ تغوصَ إلى ثلاثةِ أمتارٍ تحتَ سطحِ البحرِ.

وبالرّغمِ منْ أنّها كانتْ تغوصُ بملابسِ الرّياضةِ الّتي تغطّي جسمها بالكاملِ – ممّا كانَ أحيانًا يعيقُ حركتها في السّباحةِ – إلا أنَّ هذا لمْ يشفعْ لها بتاتًا... بلِ اعتبرَ بعضهمْ مجرّدَ نزولها في الماءِ عيبًا كبيرًا، وأصبحَ همَّ هذهِ الفئةِ منَ النّاسِ مضايقةُ يسرى وأهلها ومحاولةُ إقناعها بالعدولِ عنْ مهنةِ الصّيدِ.

في صّباحِ اليومِ التّالي ذكّرتها والدتها بخطبةِ فداءَ ابنةِ الجارةِ أمِّ حافظٍ. كانتْ فداءُ تكبرُ يسرى بعامٍ واحدٍ فقطْ.

قالتْ والدتها: «عقبالك يا يسرى! سمعتُ منْ أمِّ حافظٍ أنَّ خطيبَ فداء مقتدرٌ ويعملُ في الخليجِ وسوفَ يأخذها معهُ.»

قالتْ يسرى: «ولكنّهُ يكبرها بأكثرَ منْ عشرِ سنواتٍ يا أمّي وهيَ لمْ تكملْ تعليمها بعدُ... أنا بصراحةٍ أتمنّى أنْ أنهيَ تعليمي الجامعيَّ أوّلاً... المهمُّ الآنَ ماذا ألبسُ لحفلةِ الخطبةِ؟ هلْ يمكنُ أنْ أستعيرَ منكِ الفستانَ الأزرقَ الطّويلَ؟»

ضحكتْ والدتها وقالتْ لها: «هذا الفستانُ من جهازي وقدِ احتفظتُ بهِ كلَّ هذهِ السّنينَ لأراكِ تلبسينهُ... لقد تغيّرَ حجمي مع مرورِ الأيّامِ والفستانُ أصبحَ صغيرًا عليَّ. قيسيهِ وإذا احتاجَ إلى أيِّ تعديلٍ سأقومُ بعملهِ بسرعةٍ.»

لبستْ يسرى الفستانَ الأزرقَ الفاتحَ المصنوعَ منَ الساتانِ اللّامعِ والمزيّنَ بصفٍّ طوليٍّ منَ الأزرارِ الذّهبيّةِ.

نظرتْ إلى صورتها في المرآةِ وتخيّلتْ نفسها ممثّلةً مشهورةً. دارتْ حولَ نفسها وهيَ تقولُ لأمّها: «ما رأيكِ يمّا هلْ أبدو جميلةً؟»

قالتْ أمّها بإعجابٍ: «ستكونينَ أحلى واحدةٍ في الحفلِ، ولكنْ عليكِ أنْ ترتّبي شعركِ الهائجَ هذا، ما رأيكِ أنْ تعملي له حمّامًا منْ زيتِ الزّيتونِ؟ بالتّأكيدِ سيعطيهِ لمعةً ويسهّلُ تصفيفهُ.»

عندما حانَ موعدُ حفلِ الخطبةِ، خرجتْ يسرى منْ غرفةِ النّومِ إلى حيثُ يجلسُ والدها يشاهدُ الأخبارَ على التّلفازِ.

نظرَ إليها غيرَ مصدّقٍ ما يرى وقهقهَ ضاحكًا وقالَ: «قمر! واللهِ قمر! منْ يصدّقُ أنَّ هذهِ الفتاةَ الجميلةَ بالفستانِ الأزرقِ هيَ يسرى الصّيّادةُ؟»

لفّتْ يسرى حولَ نفسها وهيَ تضحكُ بسعادةٍ، ثمّ أسرعتْ تطبعُ قبلةً على جبينِ والدها وهيَ تقولُ: «أنا مثلُ سندريلا يابا... تحوّلتُ اليومَ إلى أميرةٍ لأحضرَ الحفلَ وغدًا سأعودُ صيّادةً.»

قالَ والدها: «وإنْ شاء الله مثل سندريلا، راح تلاقي مين يستاهلك ويعيّشك أحلى عيشة يا بنتي.»

قالتْ أمّها بحرارةٍ: «آمين يا رب.»

صاحَ جميلٌ: «يللا يسرى، يللا يمّا تأخّرنا على الحفلة... أنا سامع الموسيقى.»

صوتُ الزّغاريدِ والموسيقى ملأَ الحيَّ... دخلتْ يسرى ووالدتها إلى بيتِ الجيرانِ، وبعدَ التّحيّاتِ والقُبَلِ جلستا في وسطِ الجمعِ... ولكنَّ النّظراتِ والوشوشاتِ كانتْ تلاحقُ يسرى.

سمعتْ يسرى واحدةً منَ السّيّداتِ الحاضراتِ تسألُ عنها بكلِّ اهتمامٍ وتقولُ: «منْ هذهِ الفتاةُ الجميلةُ بالفستانِ الأزرقِ؟»

احمرَّ وجهُ يسرى فرحًا بهذا الوصفِ... حقًّا إنّها تشعرُ أنّها جميلةٌ اليومَ... ولكنّها صُدِمَتْ عندما سمِعتْ السّيدةَ الّتي بجانبها تجيبُ بصوتٍ مرتفعٍ وكأنّها تقصدُ أنْ تسمعها يسرى: «ولوْ... ألا تعرفينَ منْ هذهِ البنتُ؟ إنّها البنتُ المسترجلةُ يسرى، الّتي يسمونها "الصّيّادة". هلْ تصدّقينَ أنّها تقضي كلَّ وقتها معَ الرّجالِ في الميناءِ وتسبحُ في البحرِ أيضًا؟ إذا كنتِ تبحثينَ عنْ عروسٍ لابنكِ فهذهِ البنتُ غيرُ مناسبةٍ، انظري هناكَ إلى البنتِ بالفستانِ الأصفرِ، هذهِ فتاةٌ مؤدّبةٌ ومنقّبةٌ أيضًا، تصلحُ لأنْ تكونَ عروسًا لابنكِ ويمكنكِ أنْ تطوّعيها حسبما تريدينَ.»

لوهلةٍ شعرتْ يسرى وكأنَّ الغرفةَ فرغتْ منَ الهواءِ وكادتْ أنْ تقعَ... مشاعرُ متضاربةٌ أخذتْ تدورُ في نفسها.

لماذا كلُّ هذا الحقدِ؟ كلُّ ما تحاولُ أنْ تقومَ بهِ هوَ أنْ تساعدَ أهلها وتعملَ بمهنةِ العائلةِ. ما العيبُ في ذلكَ؟ هيَ بالأصلِ غيرُ مهتمّةٍ بموضوعِ الزّواجِ الآنَ، ولكنَّ ما أزعجها وأحزنها أنْ تسمعَ كيفَ يفكّرُ بها بعضُ النّاسِ في غزّةَ.

نظرتْ إلى السيّدتينِ اللّتينِ انشغلتا بالحديثِ عنْ غيرها ونسيتا أمرها. فجأةً انتابها شعورٌ بالحزنِ عليهما. لا يجبُ أن تلومهما فهذا ما تربّتا عليهِ وهذا ما تعرفانهِ من الحياةِ ولكنّها لنْ تقبلَ بأنْ تكونَ مثلهما.

شاركتْ يسرى باحتفالاتِ الخطبةِ معَ زميلاتها وجاراتها، رقصتْ وغنّتْ معهنَّ ولكنّها طوالَ الوقتِ كانتْ تشعرُ بأنّها لا تنتمي لهنَّ... كانتْ تشعرُ بأنّها مختلفةٌ.

في الأسابيعِ الأخيرةِ مرّتْ بتجاربَ لمْ تمرَّ بها أيٌّ واحدةٍ منهنَّ... صارتْ تشعرُ أنَّ أفقَ الدّنيا أوسعُ بكثيرٍ منَ الأفقِ الّذي يعشنَ فيهِ. لذلكَ عندما ضجرَ جميلٌ وطلبَ العودةَ إلى البيتِ أسرعتْ يسرى إلى والدتها وقالتْ: «يمّا، ابقي أنتِ في الحفلِ أنا سأُرْجِعُ جميلاً إلى البيتِ.»

تنفّستْ يسرى الصّعداءَ وهيَ تبتعدُ عنْ صوتِ الموسيقى الصّاخبةِ. أمسكتْ يدَ جميلٍ وصارتْ تلوّحُ بها وتتقافزُ وتضحكُ معهُ... وعندما وصلا البيتَ وجدتْ على البابِ أسعدَ وماهرًا يستعدّانِ لزيارةِ والدها.

نظرَ أسعدُ إلى يسرى بفستانها الأزرقِ الطّويلِ وهيَ تقفزُ ضاحكةً معَ جميلٍ... وخصلاتُ شعرّها البنيِّ تتراقصُ معها.

شعرَ أسعدُ بأنّها أجملُ مخلوقةٍ رآها في حياتهِ... انتبهتْ يسرى إلى نظرةِ أسعد وتلاقت نظراتهما للحظةٍ كانتْ كافيةً لأنْ تقلبَ عالمها رأسًا على عقبٍ. شعرتْ بدقّاتِ قلبها تتسارعُ ووجهها يحمرُّ. فكّرتْ أنّهُ منْ حسنِ حظّها أنَّ الظّلامَ بدأَ ينسدلُ حتّى لا يلاحظَ أسعدُ ارتباكها... ولكنّهُ كانَ مرتبكًا أكثرَ منها وكادَ أن يقعَ عندَ عتبةِ البابِ. ضحكتْ يسرى ومازحهُ ماهرٌ وهوَ يقولُ: «انتبه يا زلمة شو ماخد عقلك وعامي ضوّك.»

قالَ أسعدُ موضّحًا ليسرى: «جئنا لزيارةِ الوالدِ ولعبِ "دقّ طاولة" معهُ لنسلّيهُ بينما أنتِ والخالةُ أمُّ صالحٍ في حفلِ الخطبةِ... هلِ انتهى الحفلُ بهذهِ السّرعةِ؟»

قالت يسرى: «لا... ما زالَ مستمرًّا ولكنَّ جميلاً ضجرَ منَ الحفلِ وأرادَ العودةَ، وبصراحةٍ رحّبتُ بذلكَ أنا أيضًا.»

نادى أبو صالحٍ ضاحكًا منْ داخلِ البيتِ: «وينكم يا شباب "الطّاولة" جاهزة... والغلب أيضًا.»

19



خارج السّرب

صارَ أسعدُ يخترعُ الحججَ ليرى يسرى ويقضيَ وقتًا أطولَ معها. كانَ يعرفُ متى تعودُ في المساءِ من البحرِ، فيمرُّ قبلَ الوقتِ بمدّةٍ ويجلسُ معَ والدها يتحدّثانِ بأمورِ البلدِ والسّياسةِ إلى أنْ يظهرَ قاربُ يسرى "ستّ الكلّ" فيقولُ لوالدها: «منَ الأفضلِ أنْ أساعدَ يسرى في سحبِ الشّباكِ وتفريغِ السّمكِ.»

كانَ قلبهُ يخفقُ كلّما رآها... حتّى وهيَ بملابسِ الرّياضةِ وبشعرها الهائجِ منْ هواءِ البحرِ كانتْ تبدو لهُ أجملَ فتاةٍ في غزّةَ. لمْ تكنْ كباقي الفتياتِ... كانَ لها شخصيّتها وحضورها، وأكثرُ ما كانَ يستمتعُ بهِ هوَ الحديثُ معها بعدَ الصّيدِ ووالدها منشغلٌ بوزنِ السّمكِ وتحضيرهِ للسّوقِ معَ أبي أحمدَ.

كانَ يحدّثها عنْ فرقةِ "الرّاب" وعنْ آخرِ الأغاني الّتي ألّفوها وعنِ الصّعوباتِ الّتي تواجههمْ في نشرِ أغانيهمْ. وأحيانًا كانَ يقرأُ لها كلماتِ أغانٍ تعجبهُ وأخرى ألّفها. كانتْ يسرى تستمتعُ بحديثهِ وتشعرُ أنَّ هناكَ ما يربطهما، فكلاهما يغرّدانِ خارجَ السّربِ، وكلاهما يعتبرهُ مجتمعُ غزّةَ خارجًا عنْ قوانينهِ... أسعدُ بأغاني "الرّاب" وهيَ بكونها تعملُ بمهنةِ الصّيدِ الّتي يجبُ أنْ تكونَ حكرًا على الرّجالِ حسبَ منطقِ المجتمعِ.

كانتْ تحدّثهُ عنْ شعورها وهيَ تبحرُ وسطَ البحرِ تصارعُ الأمواجَ وتنتظرُ الأسماكَ، حتّى إنّهُ قالَ لها ذاتَ يومٍ:

«لقدْ جعلتني أنظرُ إلى البحرِ نظرةً مختلفةً يا يسرى. كمْ أتمنّى أنْ أرافقكِ في يومٍ منَ الأيّامِ.»

كانَ أسعدُ يردّدُ لها كلماتِ أغانٍ منْ فرقةِ "الرّاب" المفضّلةِ عندهُ وهيَ فرقةُ "دام" منْ فلسطينِ الدّاخلِ فتتحمّسُ معهُ وتقولُ لهُ: «هذهِ كلماتٌ تدخلُ القلبَ وتعبّرُ عنّا تمامًا، لا أفهمُ يا أسعدُ لماذا يحاربونَ أغانيَ "الرّاب" في غزّةَ ويعتبرونَ أنّها غيرُ لائقةٍ بمجتمعنا وتقاليدنا؟»

قالَ أسعدُ: «اسمعي يا يسرى كلماتِ هذهِ الأغنيةِ.»

وين ما أروح بشوف حدود

ساجنه الإنسانيّة

ليه أطفال العالم حرّة

وأنا ما إلي حرّيّة؟

فوق الخمسين سنة

إحنا عايشين وراء

سجون البنود

اللّي ساجنيّني أنا

بواقع ما يتغيّر

مش حاسّين ولا نور إلاّ سياج منها

إحنا شايفين

سماء لونها أزرق غيمها أبيض

بالنّص نجمه تذكرك أنت مقيّد

بس لا...

أنا صامد...

عايش متفائل

ما تعزل منّي الأمل بجدار فاصل

ولو السور يدور

أنا مربوط بفلسطين

كجنين لحبل الطابور

رجلي بالأرض

جذور شجر زيتون

تضل تولد تتجدّد

وتجدّد غصون

كلّ غصن،

ممدود للسّلام،

كلّ غصن

معروض لاحتلال،

ما يريد استسلام

طب ليه، ليه أنا اللّي ما إله حرّيّة ؟

*لأنّي أنا رافض إنّي أعيش بعبوديّة... **

تنهّدتْ يسرى وردّدتْ بعدهُ : «ليه أطفال العالم حرّه وأنا ما إلي حرّيّة؟»

* www.damrap.com/lyrics



20



أكبرُ سجنٍ في العالمِ

سرتْ إشاعةٌ عندَ الصّيّادينَ مفادها أنَّ أسماكَ الوطواطِ الكبيرةِ عادتْ إلى شواطئِ غزّةَ.

استعدّتْ يسرى للصّيدِ وهيَ تفكّرُ أنّها لوْ تمكّنتْ منَ اصطيادِ كمّيّةٍ وافرةٍ منَ الأسماكِ سيتمكّنُ والدها منْ تسديدِ بعضِ الفواتيرِ، كما يمكنهُ توفيرُ قسمٍ منَ المالِ لدراستها في الجامعةِ في المستقبلِ القريبِ.

في صباحِ ذلكَ اليومِ تفحّصتْ يسرى القاربَ، وطلبتْ منْ والدها أنْ يعطيها الشّباكَ الجديدةَ ثمَّ انطلقتْ بقاربها "ستّ الكلّ" تجدفُ بقوّةٍ باتّجاه الأفقِ، كانَ هناكَ الكثيرُ منَ القواربِ في البحرِ... الكلُّ يأملُ في صيدٍ وفيرٍ.

راقبَ أبو صالحٍ يسرى وهيَ تبتعدُ في البحرِ وتمتمَ لنفسهِ قائلاً: «الله يحميها، حقًّا بنت بتسوى مائة شاب.» ثمَّ عادَ لعملهِ في تصليحِ الشّباكِ.

لقدْ تغيّرْت حياتهُ تمامًا بعدَ أنْ عادَ إلى البحرِ، وخفّتْ عصبيّتهُ في البيتِ وصارَ عندهُ هدفٌ في الحياةِ وعملٌ يدعوهُ للاستيقاظِ كلَّ صباحٍ.

أصبحَ بمقدورهِ أنْ يقضيَ النّهارَ في كوخِ الصّيّادينَ معَ أبي أحمدَ بفضلِ الطّريقِ الخشبيِّ.

صارَ منْ عادةِ الصّيّادينَ أنْ يمرّوا على الكوخِ ليسلّموا على أبي صالحٍ ويتبادلوا معهُ الأحاديثَ.

كانَ حديثُ الجميعِ في ذلكَ اليومِ عنْ أسطولِ الحرّيّةِ المحمّلِ

بعشرةِ آلافِ طنٍ منَ الأغذيةِ والموادِّ الطّبّيّةِ والّذي كانَ على متنهِ مجموعةٌ منَ النّاشطينَ المؤمنينَ بعدالةِ القضيّةِ الفلسطينيّةِ والمنتمينَ لجنسيّاتٍ مختلفةٍ.

على الرّغمِ منْ أنَّ أسطولَ الحريّةِ لمْ يكنْ أوّلَ قافلةٍ بحريّةٍ تحاولُ فكَّ الحصارِ المفروضِ على غزّةَ منذُ عامِ 2007 إلّا أنّ أهلَ غزّةَ احتفوْا به كما لوْ كانَ القافلةَ الأولى، وشعروا أنّهمْ غيرُ منسيّينَ، وأنَّ هناكَ في العالمِ منْ يؤمنُ بعدالةِ قضيّتهمْ، ويرى الظّلمَ الجائرَ الواقعَ عليهمْ.

تابعَ أهلُ غزّةَ تحرّكاتِ قافلةِ الحريّةِ لحظةً بلحظةٍ. كانوا يعرفونَ أنَّ أكثرَ ما يزعجُ إسرائيلَ هوَ التّضامنُ العالميُّ معَ القضيّةِ الفلسطينيّةِ. فهيَ دائمًا تحبُّ أنْ تبرزَ نفسها كضحيّةٍ تدافعُ عنْ نفسها ليسَ إلّا، وتغضبُ عندما يراها النّاسُ على حقيقتها وهيَ أنّها الجلّادُ بكلِّ ما تحملُ الكلمةُ منْ معنى.

ما زالتِ القافلةُ البحريّةُ في أوّلِ رحلتها، قدْ تحتاجُ إلى أكثرَ منْ أسبوعٍ للوصولِ إلى غزّةَ، ولكنَّ الكلَّ حذرٌ لأنَّ إسرائيلَ لا تجدُ

حرجًا أبدًا منْ إطلاقِ النّارِ تحتَ أيِّ ظرفٍ منَ الظّروفِ. حالةُ التّرقّبِ هيَ حالةٌ عاديّةٌ عندَ أهلِ غزّةَ... في غزّةَ لا يوجدُ أيُّ مكانٍ آمنٍ.

في ذلكَ اليومِ كانَ تفكيرُ يسرى منصبًّا على أنْ تحصلَ على صيدٍ وفيرٍ منَ الأسماكِ، لذا ابتعدتْ أكثرَ منْ عادتها في البحرِ. فجأةً لاحتْ لها سفينةٌ حربيّةٌ إسرائيليّةٌ وسمعتْ صوتًا بمكبّرِ الصّوتِ يعطيها تعليماتٍ بالعبريّةِ. لمْ تستطعْ يسرى أنْ تفهمَ ما يقالُ لها لأنّها لا تعرفُ العبريّةَ، لكنّها حزرتْ بأنّها قدْ تكونُ تعدّتِ المسافةَ الّتي يسمحونَ بها لصيّادي غزّةَ.

وقفتْ في قاربها لتجدفَ وتعودَ إلى الشّاطئِ، ولكنَّ الصّوتَ صرخَ عليها بغضبٍ، فلمْ تعرفْ ما تفعلهُ فجلستْ. لقدْ سمعتْ يسرى منَ الصّيّادينَ أنّ الإسرائيليّينَ أحيانًا يوقفونَ قواربَ الصّيدِ المخالفةَ بنظرهمْ، ويطلبونَ منَ الصّيّادينَ خلعَ ملابسهمْ والسّباحةَ باتّجاهِ القاربِ الإسرائيليِّ.

شعرتْ بالهلعِ... فهيَ لنْ تخلعَ ملابسها حتّى لوْ صوّبوا بنادقهم عليها... نادى الصّوتُ عليها مرّةً ثانيةً فتملّكها الغضبُ الجامحُ

ثمَّ وقفتْ في القاربِ بكلِّ شجاعةٍ، وخلعتْ قبّعةَ صالحٍ عنْ رأسها، ووقفتْ بكلِّ تحدٍّ تنظرُ إلى السّفينةِ الإسرائيليّةِ.

كانتْ تعرفُ أنّهم ينظرونَ إلى قاربها منْ خلالِ المنظارِ المكبّرِ، سمعتْ ضحكةً ساخرةً منْ أحدِ الجنودِ على القاربِ.

جلستْ بهدوءٍ في قاربها، تحسّستِ الشّباكَ وهيَ تفكّرُ أنّها مازالتْ بحاجةٍ إلى المزيدِ من الوقتِ لتحصلَ على صيدٍ وفيرٍ.

بعدَ قليلٍ... وصلَ قاربٌ إسرائيليٌّ صغيرٌ وفي داخلهِ ثلاثةُ جنودٍ إسرائيليّينَ يحملونَ الرّشّاشاتِ.

الغريبُ في الأمرِ أنَّ يسرى لمْ تشعرْ بالخوفِ أبدًا... كانَ الغضبُ يملأُ قلبها... خاطبها أحدُ الجنودِ بالعبريّةِ، فأجابتْ بحدّةٍ: «لا أفهمُ لغتكمْ، تكلّمْ معي باللّغةِ العربيّةِ.»

ضحكَ الجنديُّ الآخرُ وهوَ يترجمُ ما قالتهُ يسرى ثمَّ قالَ لها: «هذهِ أوّلُ مرّةٍ نرى فيها فتاةً صيّادةً منْ غزّةَ، كيفَ سمحَ لكِ أهلكِ بالصّيدِ؟»

قالتْ يسرى: «لا شأنَ لكمْ بكلِّ هذا! ماذا تريدونَ منّي؟ لماذا أوقفتموني؟»

قالَ الجنديُّ بنزقٍ: «ألا تعرفينَ أنّكِ تخطّيتِ الحدودَ المسموحةَ، لذا سنعلّمكِ درسًا ونأخذُ شباككِ وكلَّ الأسماكِ الّتي صدتِها.»

صاحتْ يسرى: «لا... لا... لا يمكنكمْ أنْ تفعلوا ذلكَ، هذهِ شباكنا وقدْ دفعَ والدي دمَ قلبهِ ثمنًا لها.»

قالَ الجنديُّ الإسرائيليُّ بغضبٍ: «هذهِ هيَ الأوامرُ الّتي وصلتنا وإذا لمْ يعجبكِ الأمرُ فسنأخذُ قاربكِ أيضًا ونحتجزكِ.»

صاحتْ يسرى وصرختْ وحاولتْ جهدها أنْ تقنعهمْ بالعدولِ عنْ ذلكَ، وأخيرًا تحدّثَ أحدهمْ مطوّلاً معَ رئيسهِ بالرّاديو. ثمَّ قالَ لها: «حظُّكِ جيّدٌ اليومَ؛ لأنَّ الضّابطَ بمزاجٍ هادئٍ، وعندما علمَ أنّكِ صيّادةٌ، قرّرَ أنْ يسامحكِ هذهِ المرّةَ ولكنْ إذا تخطّيتِ المسافةَ المسموحَ بها مرّةً ثانيةً، فلنْ نسامحكِ وسيكونُ عقابكِ شديدًا، ويقولُ لكِ الضّابطُ أنْ تخبري رفاقكِ بأنَّ هذا ما ينتظرهمْ إذا همْ تعدَّوُا الحدودَ البحريّةَ.»

جدفتْ يسرى باتّجاهِ الشّاطئِ مبتعدةً عنِ الزّوارقِ الحربيّةِ الإسرائيليّةِ والغضبُ يملأُ قلبها، وضحكاتُ الجنودِ الإسرائيليّينَ المستهزئةُ تلاحقها.

ها هوَ السّجّانُ يعترضـها في وسطِ البحرِ ويمنعها منَ الصّـيدِ...
هاهوَ السّجَانُ الّذي يحاربها في لقمةِ عيشـها... هاهوَ سببُ كلِّ
المآسي الّتي حصلتْ لعائلتها وشعبها... هاهوَ يسلبها بحرها...
لقدْ شعرتْ بحقٍّ أنّها سجينةُ غزّةَ "أكبرِ سجنٍ في العالمِ".

في تلكَ الأثناءِ حدثَ أنْ رأى أحدُ الصّيّادينَ منْ بعيدٍ السّفينةَ
الإسرائيليّةَ وهيَ توقفُ يسرى، فأسرعَ راجعًا إلى الشّاطئِ
حيثُ أخبرَ الجميعَ بما رأى، وفي لحظاتٍ انتشرَ الخبرُ انتشارَ
النّارِ في الهشيمِ.
كلُّ منْ يملكُ قاربًا جاءَ ليشاركَ في إنقاذِ يسرى. أبحروا كأسطولٍ
منْ قواربِ الصّيدِ باتّجاهِ السّفينةِ الحربيّةِ الإسرائيليّةِ مستعدّينَ
للمواجهةِ بقوّةِ عددهمْ وغضبهمْ... لا غير.
في الحقيقةِ كانَ المنظرُ مهيبًا، عشراتُ القواربِ البحريّةِ تبحرُ
معًا كأسطولٍ واحدٍ لإنقاذِ يسرى.
دمعتْ عينا يسرى وهيَ تلوّحُ لهمْ بقوّةٍ وتصيحُ: «لا تقلقوا... لا
تقلقوا... أنا بخيرٍ.»

رافقتِ القواربُ يسرى إلى الشّاطئِ وهناكَ كانَ والدها بانتظارها وهوَ في حالةٍ يرثى لها منَ الخوفِ والقلقِ.

ضمّها إليهِ وشدّها وهوَ يشهقُ بالبكاءِ: «الحمدُ للهِ على سلامتكِ يا يسرى... خيّلَ إليَّ أنّني سأفقدكِ... وسأكونُ السّببَ لأنّني سمحتُ لكِ بأنْ تكوني صيّادةً، سامحيني يا ابنتي. لا أريدُ أنْ أفقدكِ مثلما فقدتُ صالحًا.»

قالتْ يسرى: «لا... لا يابا... لا تخفْ أنا بخيرٍ! ما حصلَ معي يحصلُ معَ جميعِ الصّيّادينَ. لا فرقَ بيني وبينَ أيِّ أحدٍ منْ أهلِ غزّةَ، يعاملنا الإسرائيليّونَ كلّنا بالطّريقةِ نفسها. الصّيدُ مهنتنا وأكلُ عيشنا ولنْ أدعهمْ يتحكّمونَ بخياراتي وبحياتي أكثرَ ممّا يفعلونَ الآنَ.»

تجمّعَ النّاسُ حولَ يسرى يسألونها عمّا حصلَ وكيفَ تمكّنتْ منَ الرّجوعِ دونَ مصادرةِ شباكها، ومنْ بعيدٍ رأتْ أسعدَ يشقُّ طريقهُ بصعوبةٍ وعصبيّةٍ بينَ حشدِ النّاسِ ليصلَ إليها والقلقُ بادٍ عليهِ.

لوّحتْ لهُ يسرى منْ بعيدٍ وهيَ تقولُ في قلبها: أنا بخيرٍ يا أسعدُ... لا تقلقْ.



21



مقابلةٌ صحفيّةٌ

عادَ النّاسُ يتابعونَ بكلِّ اهتمامٍ مسيرةَ "قافلةِ الحريّةِ" البحريّةِ الّتي كانتْ تضمُّ ستَّ سفنٍ، وتحملُ أكثرَ منْ ستّمائةِ متطوّعٍ منْ جنسيّاتٍ مختلفةٍ بالإضافةِ إلى المساعداتِ الإنسانيّةِ لأهالي غزّةَ. غادرتِ القافلةُ الموانىءَ القبرصيّةَ وكانَ منَ المقرّرِ أنْ تصلَ إلى ميناءِ غزّةَ بعدَ أسبوعٍ منْ إقلاعها.

ولكنَّ الزّوارقَ الإسرئيليّةَ تحرّكتْ مباشرةً باتّجاهِ القافلةِ واعترضتْ طريقها في المياهِ الدّوليّةِ على بُعْدِ نحوِ سبعينَ ميلاً بحريًّا منْ سواحلِ غزّةَ، حيثُ نادتْ على النّاشطينَ بمكبّراتِ الصّوتِ طالبةً منهمُ الابتعادَ عنْ شواطىءِ غزّةَ.

ازدادتْ وتيرةُ حماسِ النّاسِ في غزّةَ وهمْ يراقبونَ ويستمعونَ لما يحدثُ للقافلةِ المتّجهةِ صوبهمْ. وبدأوا بالاستعدادِ لاستقبالِ القافلةِ الّتي تسعى لكسرِ الحصارِ الإسرائيليِّ المفروضِ على القطاعِ. وأعلنوا أنَّ مئةَ قاربٍ فلسطينيٍّ ستنطلقُ منْ ميناءِ غزّةَ إلى عرضِ البحرِ لاستقبالِ أسطولِ الحرّيّةِ. وقامتِ السّلطاتُ في غزّةَ بتجهيزِ مرفأِ الصّيّادينَ لاستقبالِ السّفنِ.

وكالعادةِ كانتْ مجموعةٌ منْ وكالاتِ الأنباءِ الأجنبيّةِ في القطاعِ موجودةً لتغطّيَ الموضوعَ منْ كلِّ جوانبهِ في حالِ سُمِحَ للقافلةِ بالدّخولِ إلى غزّةَ أوْ لمْ يسمحْ، وأيضًا لتوثيقِ ردّةِ فعلِ أهالي غزّةَ في الحالتينِ.

بعدَ أيّامٍ منْ حادثةِ يسرى جاءَ صديقٌ لوالدها يعملُ في صحيفةِ "فلسطين" في القطاعِ وقالَ لهُ: «اتّصلتْ بي صحفيّةٌ منْ

وكالةِ أنباءٍ أجنبيّةٍ سمعتْ بيسرى وما حصلَ لها معَ البحريّةِ الإسرائيليّةِ، وهيَ مهتمّةٌ جدًّا أنْ تكتبَ وتصوّرَ تقريرًا عنها. هلْ توافقُ على ذلكَ؟»

قالَ الأبُ: «وما يفيدنا هذا؟ يكتبونَ عنّا ويبكونَ علينا، وها نحنُ على ما نحنُ عليهِ منْ حصارٍ وفقرٍ وعدمِ استقرارٍ... لا أدري، سأتركُ الموضوعَ ليسرى كيْ تقرّرَ فالموضوعُ يخصّها وحدها.»

وعندما عرضَ الوالدُ الطّلبَ على يسرى متذمّرًا، فكّرتْ يسرى قليلاً ثمَّ قالتْ لوالدها:

«لا مانعَ لديَّ منْ مقابلةِ الصحفيّةِ... فلولا بعضُ الصّحافةِ الأجنبيّةِ النّزيهةِ والنّشطاءُ الأجانبُ المتعاطفونَ معنا لنسينا العالمُ. هلْ تذكرُ النّاشطةَ الأميركيّةَ "راشيل كوري" يا أبي؟ لقدْ ضحّتْ بحياتها لأنّها آمنتْ بعدالةِ قضيّتنا» ثمَّ التفتتْ إلى صديقِ والدها وقالتْ: «أرجو منكَ يا عمّي أنْ تحدّدَ لي موعدًا معها.»

طلبتِ الصّحفيّةُ كارولين أنْ تقابلَ يسرى عندَ كوخِ الصّيّادينَ وأنْ تصوّرها وهيَ تستعدُّ للإبحارِ في "ستّ الكلّ".

في صباحِ اليومِ التّالي التقتْ يسرى باكرًا معَ كارولين وطاقمِ

التّصويرِ عندَ كوخِ الصّيّادينَ. بعدَ تبادلِ التّحيّاتِ، سألتْ كارولين يسرى أسئلةً عنْ تجربتها وعنِ الصّعوباتِ الّتي واجهتها ومازالتْ تواجهها. سألتها عنْ تقبّلِ أهلِ غزّةَ لها كصيّادةٍ أنثى، وعمّا حصل معها عندما أوقفتها سفنُ البحريّةِ الإسرائيليّةِ.

انطلقتْ يسرى بالحديثِ وكأنّها تعرفُ كارولين منذُ سنواتٍ.

ساعدتْ كارولين يسرى في تحميلِ قاربِ الصّيدِ، وركبتْ معها في «ستّ الكلّ» وهيَ تضحكُ قائلةً: «أرجو أنْ نصيدَ الكثيرَ منَ الأسماكِ اليومَ معًا»، ثمَّ لوّحتْ لقاربٍ آخرَ سيرافقهمْ فيهِ المصوّرُ معَ الكاميرا.

شعرتْ يسرى وكأنّها ممثلةُ سينما وضحكتْ قائلةً: «لمْ أكنْ أعرفُ أنّني سأصبحُ مشهورةً عندما بدأتُ الصّيدَ.»

هزّتْ كارولين رأسها وهي تتمسّكُ بجوانبِ القاربِ، وقدْ بدا عليها بعضُ الخوفِ.

قهقهتْ يسرى قائلةً: «لا تخافي يا كارولين، فأنا أعرفُ كيفَ أتحكّمُ بالقاربِ جيّدًا.»

شعرتْ بألفةٍ معَ كارولين الّتي بدتْ لها وكأنّها تكبرها بعدّةِ

سنواتٍ فقط، وأسعدها أنّها تمكّنتْ أنْ تتحاورَ معها باللّغةِ الإنكليزيّةِ وقدْ شجّعتها على ذلكَ كارولين، ولمْ يهمّها أنّها كانتْ تخطئُ في التّعبيرِ أحيانًا.

حدّثتها كارولين كيفَ وجدتْ غزّةَ تختلفُ تمامًا عمّا توقّعتهُ. قالتْ كارولين: «للأسفِ يا يسرى، الإعلامُ لا يذكرُ غزّةَ إلاّ عندَ الحديثِ عنِ القصفِ أوِ الدّمارِ أوِ الحصارِ.»

قالتْ يسرى بتحدٍّ: «ولكنْ هذهِ هي الحقيقةُ!»

أجابتْ كارولين ضاحكةً: «نعمْ يا عزيزتي، أنا لا أنفي هذا أبدًا... فقدْ رأيتهُ بأمِّ عيني... رأيتُ الدّمارَ والأحوالَ الاقتصاديّةَ المتردّيةَ بسببِ الإغلاقاتِ المستمرّةِ والحصارِ الجائرِ. ولكنَّ ما أردتُ قولهُ أنَّ هناكَ أيضًا أماكنَ جميلةً في غزّةَ . هناكَ أمورٌ أخرى في غزّةَ يجبُ علينا كصحفيّينَ أنْ نلقيَ عليها الضوءَ... فنحنُ في الغربِ لا نسمعُ عنها أوْ نراها في الصّحفِ أبدًا وكأنَّ غزّةَ ساحةُ حربٍ فقطْ. فمثلاً أحدُ معالمِ غزّةَ "حمّامُ السّمرا"... يقالُ إنَّ عمرهُ ألفُ سنةٍ... أكثرُ ما أعجبني فيهِ ثقوبُ التّهويةِ في

قبّتهِ، وكذلكَ المسجدُ العمريُّ الكبيرُ... هندستهُ رائعةٌ، وكنيسةُ الرّومِ الأرثوذكسِ الّتي بُنِيَتْ في بدايةِ القرنِ الخامسِ الميلاديِّ، وهذهِ الأماكنُ الأثريّةُ وغيرها تبيّنُ عراقةَ الشّعبِ وجذورَهُ القويّةَ الممتدّةَ عبرَ قرونٍ منَ الزّمنِ.»

ضحكتْ يسرى وقالتْ بإعجابٍ: «هلْ زرتِ كلَّ هذهِ الأماكنِ؟»

قالتْ كارولين: «نعمْ... وقمتُ بتصويرها وتصويرِ أماكنَ أخرى.»

بعدَ العودةِ إلى الشّاطئِ وأثناءَ احتساءِ الشّايِ في كوخِ الصّيّادينَ أعطتْ كارولين عنوانَ بريدها الإلكترونيِّ ليسرى، ووعدتها يسرى بأنْ تراسلها حالما تسجّلُ لنفسها عنوانَ بريدٍ إلكترونيٍّ.

سألتْ يسرى كارولين عن مهنتها كصحفيّةٍ وعنِ البلدانِ الّتي زارتها وعنْ تخصّصها في الجامعةِ، وبعدَ أنِ استمعتْ لما قالتهُ كارولين عنْ مهنةِ الصّحافةِ أعلنتْ يسرى ضاحكةً أنّها قرّرتْ أنْ تدرسَ "صحافة وإعلام" في الجامعةِ إذا قُدِّرَ لها أنْ تدخلَها.

فرحتْ كارولين باهتمامِ يسرى بعالمِ الصّحافةِ وقالتْ لها:

«يمكنكِ يا يسرى أنْ تبدئي مهنةَ الصّحافةِ منَ الآنَ.»

ضحكتْ يسرى وقالتْ: «ولكنْ كيفَ؟»

نظرتْ كارولين إلى يسرى ثمَّ أخرجتْ منْ حقيبتها كاميرا صغيرةً وقالتْ لها: «أريدكِ أنْ تأخذي هذهِ الكاميرا هديّةً منّي، سيسعدني جدًّا أنْ أعرفَ أنّها معكِ وأنّكِ تستخدمينها. صوّري كلَّ ما يلفتُ نظركِ... صوّري أشياءَ منْ حياتكِ اليوميّةِ كعائلتكِ ومحيطكِ والأحداثِ الّتي تحصلُ حولكِ، ثمَّ اكتبي عنها في مدوّنةٍ، ولا تنسَيْ أنْ ترسلي لي نسخةً منها.»

خجلتْ يسرى وقالتْ: «لا... لا يمكنني أنْ آخذَ الكاميرا... هذا كثيرٌ!»

قالتْ كارولين: «إنّها هديّةٌ منَ القلبِ... منّي لكِ.»

ثمَّ ضحكتْ قائلةً: «غدًا عندما تصبحينَ صحفيّةً مشهورةً لا تنسَيْ أنْ تذكري أنَّ أوّلَ كاميرا استخدمتها كانتْ منّي.»

قالتْ يسرى بخجلٍ: «شكرًا لكِ يا كارولين، ولكنْ على شرطٍ واحدٍ: أنْ تحضري أنتِ والمصوّرُ جاك لتناولِ الغداءِ عندنا.»

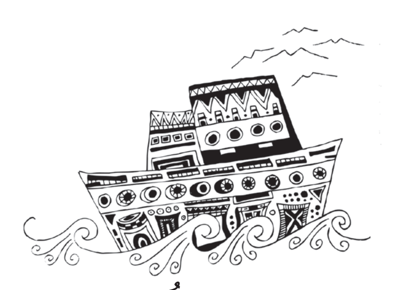
كانَ أبو صالحٍ فخورًا بابنتهِ يسرى الّتي تتكلّمُ اللّغةَ الإنكليزيّةَ،

وتستطيعُ أنْ تتحدّثَ معَ الصّحفيّةِ بطلاقةٍ. وعندما علمَ منْ يسرى عنْ دعوتها لكارولين لتناولِ الغداءِ قالَ بحماسٍ: « yes yes ... أهلاً وسهلاً.»

ضحكتْ كارولين قائلةً: «يشرّفنا أنْ نحضرَ... أليسَ كذلكَ يا جاك؟ ولكنْ على شرطٍ واحدٍ أنْ تكونَ الوجبةُ سمكًا منْ صيدكِ.»

ضحكتْ يسرى وقالتْ: «أمّي تطبخُ أفضلَ صيّاديّةٍ في غزّةَ، نراكم غدًا على وجبةِ الغداءِ. وسأصوّركمْ بكاميرتي الجديدةِ.»

22



السَّفينةُ مرمرة

في صباحِ اليومِ التّالي، استيقظتْ غزّةُ على أخبارِ الهجومِ على سفينةِ مرمرةَ التّركيّةِ المشاركةِ بأسطولِ الحرّيّةِ وهيَ في المياهِ الدّوليّةِ. فقدْ قامتِ القوّاتُ الإسرائيليّةُ بالهجومِ على السّفينةِ في ساعاتِ الصّباحِ الباكرِ وذلكَ بإنزالِ جنودٍ مدجّجينَ بالسّلاحِ على متنِ السّفينةِ، قاموا بإطلاقِ عياراتِ ناريّةٍ مباشرةٍ على النّاشطينَ الموجودينَ على السّفينةِ.

جلستْ يسرى معَ عائلتها في ذلكَ الصّباحِ الباكرِ تتابعُ الأخبارَ على التّلفازِ، اختلفتِ الرّواياتُ عنْ عددِ القتلى والجرحى وجنسيّاتهمْ.

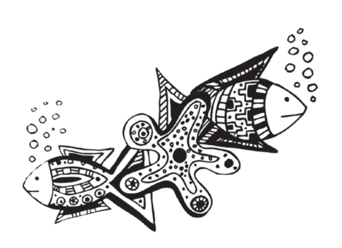
صاحَ أبو صالحٍ: «أينَ العالمُ منْ كلِّ هذا؟ يهاجمونَ سفينةً في المياهِ الدّوليّةِ تحملُ مساعداتٍ إنسانيّةً لأهلِ غزّةَ والعالمُ يتفرّجُ.»
قالتْ هالةُ: «اهدأْ يا أبا صالحٍ... اهدأْ، الآنَ يرتفعُ ضغطكَ... الله يجازيهمْ على أعمالهمْ.»
صارَ المذيعُ يعدّدُ أسماءَ النّاشطينَ الموجودينَ على سفينةِ مرمرة. كانَ معظمهمْ منَ الأتراكِ المساندينَ للشّعبِ الفلسطينيِّ وقضيّتهِ العادلةِ.
وكانَ يشاركُهمْ أيضًا منْ فلسطينَ المحتلّةِ عام 48 محمّد زيدان والشّيخ رائد صلاح والشّيخ حمّاد أبو دعابس والنّائبةُ في الكنيست حنين زعبي، وغيرهمْ منَ النّشطاءِ منْ أكثرَ منْ خمسينَ دولةً.
اتصلتْ كارولين بيسرى باكرًا واعتذرتْ عنْ تلبيةِ دعوةِ الغداءِ؛ لأنّها ستكونُ مشغولةً بمتابعةِ أخبارِ ردّاتِ الفعلِ في القطاعِ على

ما حصلَ للسّفينةِ مرمرة، ووعدتْ بأنْ تأتيَ للغداءِ في مناسبةٍ أخرى.
عمّتِ المظاهراتُ الشعبيّةُ القطاعَ وبلدانًا عربيّةً وعالميّةً وأصبحتِ السّفينةُ مرمرة حديثَ الصّحفِ ونشراتِ الأخبارِ.

تفحّصتْ يسرى الكاميرا الّتي أهدتها إيّاها كارولين، وقرّرتْ أنْ تبدأَ بالتقاطِ الصّورِ. كانتْ أوّلُ صورةٍ أخذتها لوالدها وهوَ جالسٌ على كرسيّهِ المتحرّكِ منشدٌّ بغضبٍ إلى شاشةِ التّلفازِ وفوقَ رأسهِ صورةٌ كبيرةٌ لصالحٍ. أخذتْ صورًا لوالدتها وهيَ تصبُّ الشّايَ في الأكوابِ الصّغيرةِ وتحاولُ أنْ تهدّئَ زوجها، وصورةً لجميلٍ وهوَ يلعبُ بسيّارةٍ قديمةٍ بالقربِ منْ والدهِ، ويتركها للحظاتٍ ليتابعَ معَ العائلةِ ما يحصلُ على التّلفازِ.



23



صورٌ معبّرةٌ

بعدَ الظّهرِ حضرَ أسعدُ وسهادُ ودعدٌ وماهرٌ ليطمئنّوا على العائلةِ.
رحّبَ أبو صالحٍ بقدومهمْ وطلبَ منهمْ أنْ يخبروهُ عمّا يحصلُ في شوارعِ غزّةَ.
قالَ ماهرٌ: «الشّوارع مولّعة في القطاعِ يا عمّي. مظاهراتٌ في كلِّ مكانٍ احتجاجًا على ما حصلَ. أنا والشّبابُ شاركنا في مظاهرةٍ في شارعِ "صلاح الدّين". واللهِ، الواحد لا يعرفُ كيفَ يعبّرُ عنْ

غضبهِ وسخطهِ على ما يحدثُ. لم يتركوا لنا شيئًا دونَ أنْ يتدخّلوا بهِ ويدمّروهُ.»

هزَّ أبو صالحٍ رأسهُ وصاحَ بغضبٍ: «نعمْ... ولكنْ هذهِ المرّةَ تخطَّوْا المعقولَ. كيفَ يتجرّأونَ على الهجومِ على سفينةٍ سلميّةٍ في عرضِ البحرِ وقتلِ ركّابها المساكينِ الّذينَ حضروا لمؤازرتنا.»

تذكّرتْ يسرى كاميرتها الجديدةَ فأخرجتها وبدأتْ بالتقاطِ صورٍ للجلسةِ. أخذتْ صورةً لوالدها وهوَ يحرّكُ ذراعيهِ معبّرًا عنْ غضبهِ واستيائهِ لما يحصلُ، وصورةً لوالدتها وهيَ تحاولُ تهدئتهُ، ثمَّ صورةً لسهادَ ودعدٍ وهما تلاعبانِ جميلاً. وبحركةٍ غيرِ إراديّةٍ وجدتْ عدسةُ الكاميرا أسعدَ وتفحّصتْ وجههُ. شعرَ بنظراتها منْ وراءِ عدسةِ الكاميرا فابتسمَ لها... ارتبكتْ للحظاتٍ وبسرعةٍ قفزتْ منْ مكانها وقالتْ: «ما رأيكمْ بكاسة شاي معَ النّعناعِ؟»

وعندما لحقتْ سهادُ ودعدٌ بيسرى إلى المطبخِ لتساعداها في تحضيرِ الشّايِ. سألتها دعدٌ عنِ الكاميرا فتحدّثتْ يسرى عنِ

المقابلةِ الصحفيّةِ وأردفتْ قائلةً: «واللهِ لقدْ انفتحَ قلبي لهذهِ الصّحفيّةِ... شعرتُ بأنّني أعرفها منذُ سنواتٍ، وأنّها حقًّا متعاطفةٌ معنا ومهتمّةٌ بما يحصلُ لنا. لقدْ أصرّتْ كارولين أنْ تعطيني هذهِ الكاميرا عندما قلتُ لها إنّني أفكّرُ بدراسةِ الصّحافةِ في الجامعةِ. وقالتْ لي إنّهُ يمكنني أنْ أبدأَ منَ الآنَ بأخذِ الصّورِ وكتابةِ مدوّنةٍ خاصّةٍ بي.»

ثمَّ ضحكتْ بسخريةٍ وقالتْ وهيَ تنظرُ بعيدًا: «ولكنّها لا تعرفُ أنّني لا أملكُ جهازَ حاسوبٍ، فأينَ سأكتبُ وأنشرُ مدوّنتي هذهِ؟»

قالتْ سهادُ بحماسٍ: «بسيطة! يمكنكِ أنْ تذهبي إلى مركزِ الطّفلِ الثّقافيِّ.»

«أينَ يقعُ هذا المركزُ؟ لمْ أسمعْ بهِ منْ قبلُ.»

«المركزُ خلفَ المنتزهِ.»

«هلْ تقصدينَ منتزهَ البلديّةِ في شارعِ الوحدةِ... آه أعرفهُ، وماذا يقدّمُ هذا المركزُ؟»

«بإمكانكِ الاشتراكُ في المكتبةِ التّابعةِ للمركزِ واستخدامُ الحاسوبِ متى أردتِ، والاشتراكُ في النّشاطاتِ والدّوراتِ

مجّانًا... أنا ودعدٌ نذهبُ دائمًا، وفي الإجازاتِ نتطوّعُ في المركزِ لنساعدَ الأطفالَ الأصغرَ عمرًا... نقرأُ لهمْ قصصًا، وأحيانًا نأخذُ دوراتٍ في الحاسوبِ والفنِّ والكتابةِ، وأسعدُ أيضًا يحضرُ إلى المركزِ ويعطي الأطفالَ دروسًا في الموسيقى والإيقاعِ.»

«رائعٌ! متى نذهبُ؟ متى؟»

قالتْ سهادُ ممازحةً يسرى: «يبدو أنّكِ تحمّستِ للموضوعِ عندما سمعتِ أنَّ أسعدَ يذهبُ إلى المركزِ أيضًا.»

احمرّ وجهُ يسرى وقالتْ: «لا واللهِ ... لا.»

ضحكتْ سهادُ وقالتْ: «ولا يهمّك يا يسرى... هوَ إعجابٌ متبادلٌ، إنّهُ أخي التّوأمُ وأنا أدرى النّاسِ بهِ.»

ولكنْ لنرجعْ إلى موضوعنا... لقدْ فهمتُ منْ والدكِ أنَّ جميعَ الصّيّادينَ حذرونَ منَ الخروجِ إلى البحرِ في هذهِ الأوقاتِ الحرجةِ.»

«نعمْ للأسفِ علينا أنْ ننتظرَ إلى أنْ تهدأَ الأمورُ، وقدْ تطولُ لأكثرَ منْ أسبوعٍ، لا أدري كيفَ سنتدبّرُ أمورنا في هذا الوقتِ؟»

قالتْ دعدٌ: «كانَ اللهُ في عونِ النّاسِ، أمّا كلامُ سهادَ فصحيحٌ يا يسرى، أنا متأكّدةٌ أنَّ المركزَ سيعجبكِ.» ثمَّ أضافتْ ضاحكةً: «ويبدو أنَّ هذا الإعجابَ لأكثرَ منْ سببٍ. ما رأيكمْ يا جماعةُ أنْ نذهبَ غدًا إلى المركزِ؟ منذُ مدّةٍ لمْ أذهبْ إليهِ، وفي الحقيقةِ اشتقتُ إلى المكانِ.»

قالتْ يسرى: «يسعدني أنْ أذهبَ معكما إلى مركزِ الطّفلِ غدًا، ولكنْ هلْ يمكنُ أنْ نأخذَ جميلاً معنا؟»

قالتْ دعدٌ: «طبعاً يا يسرى. سيجدُ هناكَ الكثيرَ منَ النّشاطاتِ الّتي ستشغلهُ. سنمرُّ عليكِ غدًا السّاعةَ العاشرةَ.»

24



خياراتٌ مختلفةٌ

عمارةٌ كبيرةٌ حديثةٌ واجهتهمْ في أوّلِ الشّارعِ. قالتْ سهادُ: «هذا هوَ المركزُ الّذي أخبرناكِ عنهُ. تعاليْ معنا لنعرّفكِ على المسؤولةِ عنه، اسمها كفاحُ وهيَ لطيفةٌ جدًّا.»

ربّتتْ دعدٌ على رأسِ جميلٍ وقالتْ: «وأنتَ يا جميلُ ستستمتعُ بوقتكِ هنا، ستجدُ الكثيرَ الّذي يمكنُ أنْ تعملهُ، ولكنْ علينا أوّلاً أنْ نسجلّكما في المركزِ.»

بعدَ الانتهاءِ منَ التّسجيلِ وأخذِ بطاقاتِ العضويّةِ في المركزِ، أخذتْ سهادُ ودعدٌ يسرى وجميلاً في جولةٍ.

نظرتْ يسرى إلى رفوفِ الكتبِ المكدّسةِ بإعجابٍ. قالتْ سهادُ: «هذهِ مكتبةٌ كبيرةٌ يمكنُ أنْ يستعيرَ منها الأطفالُ الكتبَ الّتي تعجبهمْ. وهناكَ خلفَ الحائطِ الخشبيِّ منطقةٌ للحواسيبِ حيثُ يمكنكِ استخدامها لكتابةِ المدوّنةِ أوْ للبحثِ عنِ معلوماتٍ أو للتّسليّةِ.»

وفي المسرحِ الكبيرِ كانَ هناكَ مجموعةٌ منَ الأطفالِ يتدرّبونَ على مسرحيّةٍ. لوّحوا منْ بعيدٍ لدعدٍ الّتي كانتْ مدرّبةً لهمْ في دورةٍ سابقةٍ؛ فابتسمتْ لهمْ وأرسلتْ لهمْ قُبلاتٍ في الهواءِ.

بالقربِ منَ المسرحِ شاهدتْ يسرى في إحدى القاعاتِ أطفالاً يرسمونَ ويقومونَ ببعضِ الأعمالِ الفنيّةِ، وفي قاعةٍ أخرى رأتْ أطفالاً يتمرّنونَ على عزفِ آلاتٍ موسيقيّةٍ متنوّعةٍ. وأخيرًا مرّت على قاعةٍ كانَ الأطفالُ يتعلّمونَ فيها "التيكواندو."

لمْ تصدّقْ يسرى أنَّ مثلَ هذا المركزِ موجودٌ في غزّةَ وأنّها تسمعُ بهِ لأوّلِ مرّةٍ... قدْ يكونُ السّببَ أنَّ كلَّ ما حصلَ لها ولعائلتها في

السّنواتِ الماضيةِ قدْ شغلها عنْ متابعةِ مثلِ هذهِ الأنشطةِ.
تحمّسَ جميلٌ للنّشاطِ الفنّيِّ وطلبَ مشاركةَ الأطفالِ بالرّسمِ والتّلوينِ. تركتهُ يسرى معَ المدرّبةِ وهيَ تقولُ لهُ: «سأعودُ لأراكَ بعدَ قليلٍ، أرجوكَ يا جميلُ ألاّ تغادرَ المكانَ حتّى لا تضيعَ منّي، فهذهِ أوّلُ زيارةٍ لنا هنا وأنتَ لا تعرفُ المكانَ.»
عرّفتْ سهادُ يسرى على مسؤولةِ المركزِ، كفاحَ، الّتي رحبّتْ بها وشدّتْ على يدها بحرارةٍ وهيَ تقولُ:«أنتِ يسرى الصّيّادةُ؟ الكلُّ يتحدّثُ عنكِ... واللهِ إنّكِ "جدعة"! ألمْ تخافي عندما أوقفتكِ سفينةُ خفرِ السّواحلِ الإسرائيليّةُ؟ في الحقيقةِ يا يسرى نحنُ بحاجةٍ إلى شبابٍ بشجاعتكِ ونرحّبُ بكِ في المركزِ.»
فرحتْ يسرى بهذا التّرحيبِ الحارِّ وأفصحتْ لكفاحَ عنْ رغبتها في كتابةِ مدوّنةٍ عنْ تجربتها وأنّها تريدُ أنْ تعزّزها بصورٍ تلتقطها بكاميرتها الجديدةِ، واعترفتْ لها بأنّها ليستْ خبيرةً في تشغيلِ الحاسوبِ لأنّها لا تملكُ واحدًا في البيتِ.
قالتْ كفاحُ: «في الحقيقةِ لقدْ جئتِ في الوقتِ المناسبِ فغدًا سنبدأُ دورةً جديدةً لتعليمِ استخدامِ الحاسوبِ. الدّورةُ مدّتها أسبوعٌ

والتّسجيلُ فيها مجانيٌّ. أسرعي سجّلي فيها الآنَ لأنَّ الأماكنَ محدودةٌ.»

فرحتْ يسرى لأنّها أخيرًا ستتعلّمُ استخدامَ الحاسوبِ وسيصبحُ عندها عنوانٌ إلكترونيٌّ ترسلهُ لكارولين، وعرفتْ أنَّ هناكَ دوراتٍ أخرى متخصصّةً يمكنُ أنْ تلتحقَ بها فيما بعدُ.

فجأةً تذكّرتْ نصيحةَ كارولين أنْ تجعلَ الكاميرا تسجّلُ ما يحدثُ معها وما يحدثُ منْ حولها .

أخرجتِ الكاميرا منْ حقيبتها وبدأتْ تصوّرُ. ستكتبُ أوّلَ مدوّنةٍ لها عنِ المركزِ.

بعدَ أسبوعٍ منْ دوامها في المركزِ، أصبحتْ يسرى تعرفُ كيفَ تشغّلُ الحاسوبَ، وسجّلتْ بريدًا إلكترونيًّا خاصًّا بها وأرسلتْ أوّلَ رسالةٍ لكارولين أرفقتْ معها صورًا للمركزِ، أخبرتها فيها أنّها ستبدأُ قريبًا كتابةَ مدوّنتها وأنّها بدأتْ تفكّرُ باسمٍ مميّزٍ لها.

لمْ تسعِ الدّنيا يسرى منَ الفرحِ عندما وصلتها أوّلُ رسالةٍ إلكترونيّةٍ منْ كارولين مرفقةً برابطٍ للمقالِ الّذي كتبتهُ عنها وفيهِ

صورتها وهيَ تقفُ في قاربها وتمسكُ بالمجدافِ.
أرسلتْ يسرى الرّابطَ لكفاحَ الّتي شاركتها فرحتها، وقامتْ بطباعةِ المقالِ وترجمتهِ إلى اللّغةِ العربيّةِ ثمَّ علّقتهُ على لوحةِ العرضِ الكبيرةِ أمامَ المكتبةِ ليراها الدّاخلُ والخارجُ.
أحسّتْ يسرى بالفخرِ، ولأوّلِ مرّةٍ شعرتْ بأنَّ كلَّ الخياراتِ متاحةٌ أمامها... فهيَ تستطيعُ أنْ تحقّقَ أحلامها حتّى وهيَ حبيسةٌ في غزّةَ.
لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى صارتْ يسرى تعرفُ كيفَ تستخدمُ برنامجَ "الفوتوشوب" لمعالجةِ الصّورِ الفوتوغرافيّةِ. فتحتْ حسابًا لها على "الفيسبوك" و"تويتر" وأصبحتْ تعرفُ كيفَ ترسلُ التّغريداتِ ودخلتْ عالمًا واسعًا وعجيبًا، لقدْ أصبحَ بإمكانها أنْ تتّصلَ بمنْ تريدُ في أيِّ مكانٍ في العالمِ منْ خلالِ "الإنترنت"، وأنْ تحصلَ على أيّةِ معلومةٍ تريدها، وأنْ تشاركَ أخبارها معَ الآخرينَ.

25



وظيفةٌ جديدةٌ

الوضعُ في غزّةَ ما زالَ متأزّمًا. المظاهراتُ مستمرّةٌ في الشّوارعِ ضدَّ الهجومِ على السّفينةِ مرمرةَ. إسرائيلُ تهدّدُ بهجومٍ جديدٍ على غزّةَ في حالِ أُطلقتْ صواريخُ منْ أراضيها. الطّائراتُ تخرقُ يوميًّا جدارَ الصّوتِ وتروّعُ السكّانَ. الكلُّ في غزّةَ متأهّبٌ ويتوقّعُ الأسوأَ.

وكما حصلَ مرارًا وتكرارًا منعتْ إسرائيلُ الصّيّادينَ منَ الخروجِ إلى الصّيدِ متذرّعةً بأسبابٍ أمنيّةٍ، ومنْ تجاربَ سابقةٍ يعرفُ الصّيّادونَ أنَّ مثلَ هذا المنعِ قدْ يستمرُّ لأسابيعَ.

لقدِ اشتاقتْ يسرى إلى البحرِ وإلى رذاذهِ الّذي يلسعُ وجهها... اشتاقتْ إلى الأفقِ اللامنتهي أمامها، وإلى صوتِ أمواجِ البحرِ تلطمُ جوانبَ القاربِ.

ولكنَّ ذهابها يوميًّا إلى المركزِ واندماجها بأنشطتهِ المختلفةِ جعلها تشعرُ بأنَّ عندها خياراتٍ أخرى وأنّها بدأتْ مرحلةً جديدةً في حياتها.

كانتْ كفاحُ تعرفُ ظروفَ يسرى العائليّةَ وتعرفُ مدى حاجتها لدخلٍ يساعدها على سدِّ مصاريفِ البيتِ ولوْ قليلاً.

أعجبتها يسرى بنباهتها وسرعةِ تعلّمها وذكائها؛ فعرضتْ عليها أنْ تستلمَ صحيفةَ المركزِ الأسبوعيّةَ وتزوّدَ صفحةَ "التويتر" و"الفيسبوك" بأخبارِ المركزِ أوّلاً بأوّلَ وذلكَ مقابلَ راتبٍ بسيطٍ.

قالتْ كفاحُ ليسرى: «سمعتُ أنّكِ تريدينَ أنْ تصبحي صحفيّةً لذلكَ

سأعطيكِ الفرصةَ لتتمرّني منَ الآنَ على مهنةِ الصّحافةِ.»
كادتْ يسرى أنْ تطيرَ منَ الفرحِ، وأسرعتْ إلى البيتِ لتخبرَ عائلتها بوظيفتها الجديدةِ وهيَ تقولُ لوالدها: «أوقاتُ عملي في المركزِ مرنةٌ ويمكنني أنْ أعاودَ الصّيدَ عندما يزولُ الخطرُ والحظرُ، وحتّى عندما تبدأُ المدرسةُ يمكنني أنْ أعملَ في المركزِ بعدَ الظّهرِ. لا تقلقْ يابا، ستكونُ أمورنا على ما يرامُ.»
ثمّ أكملتْ قائلةً: «وأيضًا عليكَ أنْ ترى كمْ يستمتعُ جميلٌ في المركزِ وهوَ يتعلّمُ الكثيرَ هناكَ.»
قالتْ والدتها: «باركَ اللهُ في هذا المركزِ، فهوَ يبعدُ الأطفالَ عنِ اللّعبِ في الشّوارعِ بينَ السّيّاراتِ.»
لكنَّ أكثرَ ما كانَ يشدُّ يسرى للمركزِ هوَ أنَّ أسعدَ يداومُ على الذّهابِ إلى المركزِ مرّتينِ في الأسبوعِ ليقدّمَ ورشةً موسيقيّةً للأطفالِ، يعلّمهم فيها فنونَ الإيقاعِ على الطّبلةِ والدّفِّ.
كانَ الأطفالُ يحبّونهُ ويلحقونَ بهِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ فتقولُ لهُ يسرى: «أنتَ مثلُ "عازفِ المزمارِ" الّذي يجعلُ الأطفالَ تحتَ طوعهِ من خلالِ العزفِ على مزمارهِ.»

كانَ يضحكُ ويبدأُ بالدّقِّ على الدّفِّ فيلتمُّ الأطفالُ حولهُ، فيمازحهمْ ويلاعبهمْ حتّى يمشوا وراءهُ إلى غرفةِ الموسيقى. فيقولُ ضاحكًا ليسرى: «أنا عازفُ الدّفِّ لا المزمارِ.»
وعندما يبدأُ درسُ الإيقاعِ يصبحُ أسعدُ حازمًا، لا يقبلُ أيَّ تلاعبٍ أو كسلٍ.

كانتْ يسرى تنتظرُ انتهاءَ ورشةِ الإيقاعِ بفارغِ الصّبرِ لأنَّ أسعدَ تعوّدَ أنْ يحضرَ إلى مكانِ وجودها في المركزِ. يستمعُ إلى أخبارها بكلِّ اهتمامٍ ويعطيها رأيهُ في كتاباتها بكلِّ صراحةٍ فتضحكُ قائلةً: «أنتَ لا تجاملُ أبدًا.»
فيجيبها قائلاً: «هذا لمصلحتكِ، فأنا أريدُ أنْ أراكِ تصبحينَ أحسنَ كاتبةٍ في غزّةَ.»
ثمَّ التفتتْ إليهِ وقالتْ: «أريدُ أنْ أكتبَ عنْ تجربتكَ الموسيقيّةِ معَ موسيقى "الرّاب" يا أسعدُ.»
ضحكَ أسعدُ وقالَ: «فكرةٌ! ولكنْ ما رأيكِ أنْ تحضري تمرينَ الفرقةِ على "الرّاب" يومَ الخميسِ القادمِ؟ ستحضرُ سهادُ ودعدٌ

وستشاركاننا بالغناءِ. وهناكَ أملٌ كبيرٌ أنْ نشاركَ في حفلةٍ خيريّةٍ... طبعًا هذا إذا أخذنا الإذنَ الرّسميَّ.»

تحمّستْ يسرى وقالتْ: «نعمْ... هذا رائعٌ! سأصوّركمْ وأنتمْ تتمرّنونَ.»

26



دف دق

كانَ تمرينُ فرقةِ "الرّاب" في بيتِ ماهرٍ ودعدٍ في منطقةِ مشروعِ "الشّيخِ رضوان". فعائلةُ ماهرٍ كانتْ منَ العائلاتِ الّتي وافقتْ على الانتقالِ إلى المشروعِ الجديدِ الّذي بنيَ خصّيصًا لإسكانِ اللّاجئينَ.

أمّا أبو صالحٍ فقدْ تردّدَ في تركِ بيتهِ في مخيّمِ الشّاطئِ لقربهِ منَ البحرِ، وبقيَ معْ عائلتِهِ يعيشُ على أطرافِ المخيّمِ.
كانَ يقولُ: «والدي– رحمةُ اللهِ عليهِ – كانَ صيّادًا في يافا، وكانَ بيتهُ يطلُّ على شاطئِ البحرِ، وأنا مثلهُ صيّادٌ ابنُ صيّادٍ... أريدُ أنْ أشمَّ رائحةَ البحرِ منْ بيتي.»

كانتْ بيوتُ منطقةِ "الشّيخِ رضوانَ" حديثةً وشوارعُها أوسعَ منَ الأزقّةِ في مخيّمِ الشّاطئِ وأكثرَ ترتيبًا. نظرتْ يسرى حولها، وتمنّتْ لوْ أنَّ والدها وافقَ على انتقالهمْ إلى هذهِ المنطقةِ الجديدةِ.
وأخيرًا توقّفتِ السّيّارةُ أمامَ عمارةٍ سكنيّةٍ، قالتْ سهادُ: «ها قدْ وصلنا... دعدٌ وماهرٌ بانتظارنا.»
في تسويةِ العمارةِ كانَ هناكَ مستودعٌ لكلِّ شقّةٍ يستخدمهُ السّكّانُ للتّخزينِ. حوّلَ ماهرٌ والشّبابُ المستودعَ المخصّصَ لعائلتهِ إلى مكانٍ خاصٍّ يدرسُ فيهِ، ويستخدمهُ أيضًا للتمرّنِ معَ رفاقهِ على الموسيقى دونَ أنْ يزعجَ الأهلَ والجيرانَ.
لم تتوقّفْ يسرى عنِ التّصويرِ كلَّ الطّريقِ... فقدْ تعوّدتْ على

الكاميرا، وصارتْ تشعرُ كأنّها عينٌ ثالثةٌ لها.

لقدْ جعلتها الكاميرا ترى الأمورَ منْ حولها بشكلٍ أوضحَ وأعمقَ. كلُّ شيءٍ تراهُ هوَ مشروعُ لوحةٍ... وجهٌ لسيّدةٍ عجوزٍ، أوْ طفلٌ يضحكُ، أوْ قطّةٌ تتمطّى فوقَ حاويةِ القمامةِ. ساعدتها الكاميرا أنْ تخرجَ منْ نفسها ومنْ محيطها وتنظرَ إلى الأشياءِ نظرتينِ متكاملتينِ في نفسِ الوقتِ: نظرةً موضوعيّةً عن بعدٍ بعينِ الكاميرا، ونظرةً ذاتيّةً تعنيها هيَ فقطْ.

بعدَ إلقاءِ التّحيّةِ على أهلِ البيتِ وشربِ العصيرِ الّذي أصرّتْ أنْ تقدّمهُ لهمْ والدةُ دعدٍ نزلَ الشّبابُ إلى "الاستوديو" كما سمّاهُ ماهرٌ ضاحكًا.

بدأتْ يسرى بأخذِ صورٍ للمكانِ وهيَ تقولُ: «على فكرةٍ... ألمْ تقرّروا بعدُ اسمَ الفرقةِ؟»

قالَ ماهرٌ: «في الحقيقةِ اختلفنا على الاسمِ مدّةً طويلةً، ولكنّنا أخيرًا اتّفقنا على أنْ نسميَّ فرقتنا "دف دق" ما رأيكِ؟»

ضحكتْ يسرى وقالتْ: «دق دف... دف دق... اسمٌ غريبٌ ولكنّهُ معبّرٌ... أعجبني.»

قضوْا وقتًا رائعًا وهمْ يتمرّنونَ على الأغاني. استغربتْ يسرى كيفَ تحوّلتْ شخصيّةُ سهادَ الخجولةُ وهيَ تغنّي إلى شخصيّةٍ غاضبةٍ تعبّرُ عنْ مشاعرها بثقةٍ وحزمٍ.

كتبتْ يسرى رسالةً لصديقتها الجديدةِ كارولين تخبرها عنْ وظيفتها في المركزِ، وعنِ المدوّنةِ الّتي بدأتْ بكتابتها وأسمتها "ستّ الكلّ"، وزيّنتها بصورتها الّتي أرسلتها لها كارولين وهي تقفُ في "ستّ الكلّ". وكتبتْ تُعرّفُ متابعيها على سببِ تسميتها للمدوّنةِ بهذا الاسمِ قائلةً: «أُسمّي مدوّنتي "ستّ الكلّ" لأنّهُ اسمُ قاربِ صيدِ والدي، ولأنّني في نظرِ والدي "ستّ الكلّ"، ولأنَّ غزّةَ "ستّ الكلّ" في قلوبِ أهلها، ولأنّ فلسطينَ "ستّ الكلّ" في قلوبِ كلِّ الفلسطينيينَ والعربِ.»
ومنْ خلالِ المدوّنةِ اكتشفتْ يسرى أنّها تمتلكُ موهبةَ الكتابةِ، وصارتْ تكتبُ يوميًّا في مدوّنتها.
كتبتْ عنْ تجربتها في الصّيدِ، وعنْ تجربةِ إيقافها منْ قِبَلِ السّفنِ الحربيّةِ الإسرائيليّةِ... كتبتْ عنِ استشهادِ أخيها صالحٍ وعنْ

والدها وعنِ الأنفاقِ وعنْ جميلٍ وعنْ موسيقى "الرّاب". كتبتْ عنْ مشاعرها المختلفةِ.

كانَ عندها أسلوبٌ مميّزٌ في الكتابةِ يُشعرُ القارىءَ بالقربِ منها وكأنّها تحدّثهُ وحدهُ وتشاركهُ في حياتها، وخلالَ مدّةٍ قصيرةٍ أصبحَ عندها الكثيرُ منَ المتابعينَ الّذينَ كانوا يعلّقونَ على ما تكتبُ، ويتناقشونَ معها في شتّى المواضيعِ.

27



حنينُ إلى البحرِ

مرّتِ الأيّامُ والأسابيعُ والحظرُ ما زالَ مستمرًّا. شعرتْ يسرى بحنينٍ إلى البحرِ وكأنَّ سنواتٍ مرّتْ لا أسابيعَ قليلةً فقطْ على آخرِ خروجٍ لها بقاربِ الصّيدِ، لذلكَ قرّرتِ الذّهابَ لزيارةِ "ستّ الكلّ".

أمّا والدها فلمْ يتوقّفْ عنِ الذّهابِ إلى البحرِ معَ صديقهِ أبي أحمدَ

الّذي كانَ يمرُّ عليهِ كلَّ يومٍ بسيّارتهِ ويمازحهُ قائلاً: «مستعدٌّ للدّوامِ يا أبا صالحٍ؟»

فيجيبُ أبو صالحٍ وهوَ يجلسُ في السّيّارةِ بمساعدةِ صديقهِ: «نعمْ، طبعًا مستعدٌّ... شو ورانا يا زلمة؟... قعدةُ البحرِ لا يوجدُ لها مثيلٌ.»

تعوّدَ الصّيّادونَ أنْ يتجمّعوا عندَ الكوخِ حيثُ كانوا يتبادلونَ أطرافَ الحديثِ، ويشكونَ همّهمْ بعضهمْ لبعضٍ، ثمَّ يمضونَ الوقتَ بتصليحِ الشّباكِ وصيانةِ مراكبهمْ استعدادًا للانطلاقِ في أيِّ لحظةٍ ترفعُ فيها إسرائيلُ الحظرَ عنِ الصّيدِ.

كانتِ الأعصابُ مشدودةً لضيقِ الحالِ ولشعورِ الرّجالِ بأنّهمْ لا يتحكّمونَ بمصائرهمْ، فليسَ لهمْ حولٌ ولا قوّةٌ بلْ عليهمْ أنْ ينتظروا إسرائيلَ لتعطيَهُمُ الإذنَ حتّى يسعوْا وراءَ رزقهمْ... فمهنةُ الصّيدِ هيَ المهنةُ الوحيدةُ الّتي يتقنونها. ومعَ ذلكَ فقدْ خاطرَ بعضهمْ وخرجَ للصّيدِ، فقامتِ السّفنُ الإسرائيليّةُ بإطلاقِ النّارِ عليهِ أوْ مصادرةِ قاربهِ.

ولأتفهِ الأسبابِ كانتْ تنشبُ مشاجرةٌ بينَ صيّادٍ وآخرَ فيتدخّلُ

الجميعُ لإصلاحِ الأمرِ وإعادةِ المياهِ إلى مجاريها. وعندما يعودُ الصّيّادونَ إلى بيوتهمْ كانوا يفرّغونَ شحناتِ الغضبِ المتراكمةَ في عائلاتهمْ، وتستمرُّ الحلقةُ المفرغةُ.

كانَ على الجميعِ أنْ يتحمّلَ هذا العقابَ الجماعيَّ التّعسفيَّ الّذي كانتْ إسرائيلُ تتلذّذُ في تطبيقهِ آملةً أنْ تتحوّلَ شحناتُ الغضبِ المتّقدةُ في نفوسِ النّاسِ العاديّينَ عنها إلى الحكومةِ المحلّيّةِ، أو إلى أنفسهمْ لتعمَّ الفوضى في القطاعِ ويقولوا للعالمِ: «انظروا كيفَ يحكمُ الفلسطينيّونَ أنفسهمْ... ها همْ يتقاتلونَ على أتفهِ الأسبابِ... المشكلةُ ليستْ في إسرائيلَ ولا في الاحتلالِ، بلْ في نفسيّةِ وطبعِ الفلسطينيينَ.»

قالتْ يسرى لوالدتها قبلَ النّومِ: «يمّا اشتقتُ للبحرِ، وأريدُ أنْ أطمئنَّ على "ستّ الكلّ". سأذهبُ غدًا في الصّباحِ الباكرِ إلى شاطئِ البحرِ قبلَ الذّهابِ إلى المركزِ وسآخذُ جميلاً معي. الطّقسُ جميلٌ في هذا الوقتِ المبكّرِ منَ الصّباحِ.»

قالتْ والدتها: «ولكنْ انتبهي على جميلٍ يمّا! لا تتركيهِ يغيبُ عنْ نظركِ لحظةً. سأحضّرُ لكما زوّادةً لتتناولا طعامَ الإفطارِ على

شاطئِ البحرِ.» حضنتْ يسرى والدتها وهيَ تقولُ: «شكرًا لكِ يا أحلى أم.»

في هذا الوقتِ منَ الصّباحِ كانَ الشّاطئُ خاليًا... فلا يوجدُ هناكَ ما يدعو الصّيّادينَ إلى الحضورِ باكرًا. كانَ هناكَ بضعةُ أشخاصٍ فقطْ يمارسونَ الرّياضةَ على الجانبِ البعيدِ منْ شاطئِ البحرِ.

أسرعَ جميلٌ باتّجاهِ الشّاطئِ، خلعَ صندلهُ وركضَ وهوَ يضحكُ بأعلى صوتهِ ويقولُ: «يسرى! هل تسابقينني؟ سأغلبكِ... واللهِ سأغلبكِ!»

ضحكتْ يسرى وخلعتْ حذاءها هيَ الأخرى وانطلقتْ تتسابقُ معَ جميلٍ. نسيمُ الصّباحِ يداعبُ خصلاتِ شعرها، وصرخاتُ جميلٍ الضّاحكةُ تملأُ الشّاطئَ وهوَ يركضُ أمامها بسرعةٍ وهيَ لا تقدرُ أنْ تلحقَ بهِ.

رمتْ نفسها على الرّملِ وهيَ تقولُ ضاحكةً: «خلص يا جميل! انقطعَ نَفَسي، حقًّا إنّكَ سريعٌ.»

ساعدتْ جميلاً على التقاطِ بعضِ الأصدافِ والحجارةِ الملساءِ.

ثمَّ قالتْ لهُ: «ألا تشعرُ بالجوعِ بعدُ يا جميلُ؟ ما رأيكَ أنْ نجلسَ

في "ستّ الكلّ" ونتناولَ إفطارنا؟»

ساعدتْ يسرى جميلاً على الصّعودِ إلى "ستّ الكلّ"، وعندما جلستْ في القاربِ نظرتْ حولها وشعرتْ كأنّها عادتْ إلى بيتها بعدَ طولِ غيابٍ.

فتحتْ يسرى الزّوّادةَ وأخرجتْ منها خبزَ الطّابونِ والجبنَ الأبيضَ والزّيتونَ وقطعًا منَ البندورةِ والخيارِ. أكلتْ معَ جميلٍ بكلِّ استمتاعٍ، فهواءُ البحرِ يفتحُ الشّهيّةَ ويجعلُ طعمَ الأكلِ لذيذًا جدًّا.

قالَ جميلٌ وهوَ يتحسّسُ "ستّ الكلّ": «متى سأصبحُ صيّادًا مثلكِ يا يسرى؟»

ضحكتْ يسرى وقالتْ: «قريبًا يا جميلُ، سأعلّمكَ الصّيدَ مثلما علّمني والدي، وسنخرجُ للصّيدِ معًا... أعدكَ بذلكَ.»

ثمَّ نظرتْ إلى الأفقِ البعيدِ وقالتْ: «ولكنْ تذكّرْ دائمًا يا جميلُ... يمكنكَ أنْ تصبحَ أيَّ شيءٍ تريدُ عندما تكبرُ... أيَّ شيءٍ.»

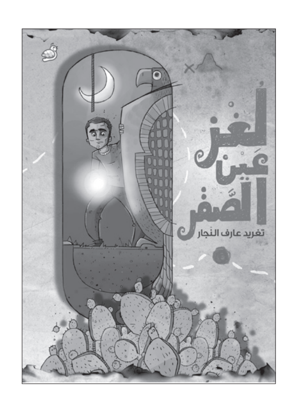
نظرتْ يسرى إلى ساعتها وابتسمتْ قائلةً: «هيّا يا عزيزي حانَ الآنَ وقتُ الذّهابِ إلى المركزِ. عندكَ اليومَ درسُ إيقاعٍ.»



"فكرة قصّة "ستّ الكلّ" الرئيسة مستوحاة من قصّة حقيقيّة لفتاة في غزّة اسمها "مادلين كُلاب".

بخلاف ذلك فإنّ جميع شخصيّات قصّة "ستّ الكلّ" وأحداثها وتفاعلاتها من نسج خيال الكاتبة، وهي محبوكة على خلفيّة واقع حياة أهالي غزّة تحت الحصار."

روايات أخرى لليافعين للمؤلفة تغريد النجار







www.alsalwabooks.com



بعد عدّة حوادث أليمة تصيب عائلة يسرى، يتغيّر مجرى حياة العائلة إلى الأبد. تصبح يسرى ذات الخمسة عشر عامًا على مفترق طرق... فإمّا أن ترضى بحياتها الجديدة أو أنْ تأخذ زمام الأمور بيدها وتقوم بفعل شيء ما لتغييرها.

لكن... ماذا لو أنّ قيامها بهذا الشّيء سيكون ضد أعراف وتقاليد المجتمع؟ ماذا سيحدث لو قامت بعمل خارج عن المألوف في عيون الناس؟ وماذا لو أنّ قيامها بهذا الشّيء سيقودها لاكتشاف سرٍّ مهمٍّ من أسرار الحياة ؟

فكرة «ستّ الكلّ» مستوحاة من قصّة حقيقيّة، تدور أحداثها في غزة، فلسطين. رواية مشوّقة ستلهم قرّاءها وتبعث شعاع الأمل في نفوسهم.

9 789957 040710

السلوى
Salwa
Publishers ناشرون